الفتى والدرويش

عنوان الكتاب: الفتى والدرويش
الموضوع: رواية
التأليف: حسن حلمي
مراجعة لغوية: منشورات الفنار
الإخراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغلاف: عبد الرحمن محمد
رقم الإيداع: 1559 / 2021
الترقيم الدولى: 987-977-844-183-3
الناشر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

ڤيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

01013483506
01550102499

منشورات الفنار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الفتى والدرويش

روايـــة حواريـــة

حســــن حلمي

إهــداء

إلى روح صديقي القُطب: إسماعيل عبد العال
الذي شاركني الحياة بحلاوتها ومرارتها،
ومنحني قُطبية الوقت، وقُبلة الحياة
ثم تركني، ورحل دون وداع
سلام الله عليك في دنياك الرحبة
حســـن

(1)
حلم أم واقع

✍ هل كان حلمًا إذن؟

هـذا الـذي رأيتـه حيـث وجدتنـي في صحـراء لا أعلم مداهـا، عندما انحرفـتْ سيارتي بـين صحراء العلمين ومرسى مطـروح، في عمق بعيد عن منطقـة الألغـام. اندفعتْ السيارة في اتجاه جانبي، يبـدو عليها أنها مسيّرة عليـه دون إرادتهـا، رغـم محاولاتـي إيقافهـا دون جـدوى، كأن الصحراء مهيـأة لاستقبالي. كيف دخلتها، وكيف توارى الخوف من قلبي، وحلّتْ محلّه الدهشة؟ تَغيّبَ العقلُ عن التفكير فجأة، وصرتُ ممن يسلكون الطريق دون هـدًى، مأسوريـن، مأمورين، هائمين، لا يسألون عـن ماضيهم وذويهم، ولا يحرصـون على لحظاتهم الآنية، مدفوعين بقـوة إيمانهم للوصول إلى مقام الأحدية والفناء فيه. والغريب أن تجري هذه الأفكار في عقلي قبل أن تنمحي منه الذاكرة!

نزلتُ من السيارة التي توقفتْ فجأة على صفحة الرمال الناعمة لتتنفس بعضـاً مـن هواء لم تجده داخـل المدن. أول مـا لامستْ قدمـيّ تلك الرمال أحسسـتُ بـوطءِ سخونتها، رغم بـرودة هواءها. ملأتُ رئتـيَّ مثل سيارتي بمزيـدٍ من هواءٍ نظيـف أعادني إلى لحظاتـي الأولى عندما خرجتُ للحياة أول مـرة. تجولتُ بعينيَّ بين أطراف الصحراء المتراميـة وأنا أسأل نفسي: لمـاذا توقفـتْ السيارة في هذا المـكان الذي لا أثر فيه لحيـاة؟ هل يختبرني

ربّ العــزَّة في الصبر على البلاء أم يرسل إليَّ إشارة ما كي أتّبعها عن رضا وقبول؟ أياً كان ما يحدث لي، فقد راهنتُ نفسي على أن أتدرب على الصبر حتى يأذن لي المولى بمغادرة هذا المكان الموحش. لكن نفسي الأمارة بالسوء لم تتركنــي أنعم بمــا تراه عيناي من عظمــة الخالق وإبداعــه لمشهد لم أره مــن قبل.. سكــون الرمال، وصفاء السمــاء، وتناغم الكثبــان الرملية أيقظ روحــي، وأخاف نفسي، فتســرّبَ الخوفُ في أوصالي، واهتــززتُ من صفير الريــاح الخفيفة، فأغلقتُ روحي على ما أبدته نفسي من خوف، وسرتُ على غــير هدى، يدفعنــي الظن بوجود مخرج ما، أو مكان مــا يسكنه بشر. حتى لاحــت لي عن بعد خيمة صغيرة تنبــتُ حواليها بعض الأشجار الصحراوية، فاقتربــتُ منها حثيثاً، على أمــل أن أجد فيها ما يطمْئــن قلبي. حتى إذا ما لاحــت لي فتحــة الدخول وقد خرج منهــا أسد عظيم الهيئــة، يُسرع بوثبات هائلــة، فاتحــاً فمــه، لتــبرز أنيابــه في اتجاهي، تلــك الوجبــة الشهية التي ينتظرها. فتوقفتُ هلعًا، وفكّرتُ في العودة.. لولا أنَّ المسافة قد أبعدتني عن السيارة. فأخذتُ أصيح:

- يا ساكن الخيمة.. يا ساكن الخيمة!

مــا لبثتْ أن خرجتْ عصا طويلة، وأشارت إلى الأسد، فلوى فروة رأسه، وابتعد قاطعًا الصحــراء بوثباته السريعة. تعلّقتْ عيناي بتلك العصا، حتى خرجــتْ رأس آدميــة لشيخ طاعن في الســن، عظيم الهيبة والوقــار، وأشار بعصــاه أن: «تعال». فتقدمتُ سريعاً حتــى دخلتُ الخيمة، وأنا ألهجُ بالدعاء بنجاتي من ذلك الأسد الذي خرج من الخيمة تاركًا الشيخ حيًّا كما رأيته.

فقلت له :

ـ ماذا كان يفعل الأسد داخل الخيمة ولم يؤذك؟

فقال لي متعجلاً :

ـ قل السلام عليكم أولاً يا فتى حتى أأمن لك وتأمنني.

فخجلتُ من نفسي. وقلتُ:

ــ معذرة يــا سيدي.. السلام عليكــم ورحمة اللّه. لكن مــاذا كان يفعل الأسد داخل الخيمة؟

ـ أيُّ أسد؟ لم أرَ شيئًا يدخل أو يخرج مما تقول يا ولدي!

ـ لكنك أشرتَ له بعصاك ففرّ من أمامي.

فابتسم وقال لي :

ــ إنها نفسك الأمّارة بالسوء قد خيّلت لك ذلك. عُدْ إلى سيارتك، وقُمْ بتغطيتها حتى لا تتسلَّل بداخلها أيَّة عناكب أو ثعابين، أو تؤذي هيكلها ذرات الرمــال حين يشتد الريح، ثم ارجــع إليَّ واقض ليلتك، وفي الغد إن شاء اللّه سأصفُ لك طريق العودة.

فسألته :

ـ كيف عرفت أنّي جئت بسيارة؟

ــ يا ولدي.. جاء إلى هذا المكان الكثيرون من الناس بسياراتهم، ضالِّين أو زائريــن ثم عــادوا. لماذا تهتــم بما أعلــم. إنك ضيفي اليــوم فلا تتعجل بالأسئلــة، وتفقَّد متعة التأمل وتصفية الروح ودرِّبْ نفسك على الطاعة، فلا تجرَّنك إلى الخوف، ومن ثم المعصية.

فقلتُ له:

- ولكنني شاهدتُ الأسد! فقال لي:

- لا تخف.. الأسد الذي شاهدته هي نفسك الأمّارة. وعندما أشرتُ إليها بعصاتيُ أسكنتها الصحراء حتى تهدأ روحك.. يا ولدي أنت في مأمن الآن. قم وتوضأ وصلِّ قصّرًا، فأنت على سفر.

-ألديك ماء للوضوء وأنت في هذا المكان المقفر.. فكيف تحصل عليه؟ أريحني كي يطمئن قلبي إليك.

- في الغد سآخذك إلى مصدر الماء. قلتُ لك لا تتعجل.

ثم تمتم (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) فخجلتُ من نفسي، وقمتُ وغطّيتُ سيارتي، ثم توضأتُ من زِقِّ الماء، بعد أن شربتُ منه وارتويت، وصلّيتُ ما فاتني من أوقات. لم أقو على النوم، فصورة الأسد ما زالت ماثلة أمامي. دخل الشيخ في صلاته، فلم أجد بداً من الخروج من الخيمة كي أتأمل خيمة السماء المثقّبة بالنجوم.

فكّرتُ طويلاً في هذه الإشارة. الحلمُ بالعارفين يحتاج من يفكُّ طلاسمه بمن خالطهم، أو تلقّوا العلم على أيديهم.. أهو عارف بالله إذن ممن أسمع عنهم ولا أراهم أم رجل صالح انقطع عن الناس في هذا المكان الموحش، وجعل من خيمته حياة خشنة مغايرة لما نحياها نحن؟ ظللتُ أسألُ نفسي: أهي رؤيا إذن أم حلم أتى من زمن غابر صعد فجأة لمكنون سري؟ عمَّ السكون، وساد صمتٌ لا يخدشه إلا صوت الريح تُقلّب الرمال فوق الكثبان. أحسستُ بوحشة الصحراء، وغموض الليل فيها. لم أستطع رؤية الحد

الفاصل بين السماء والأرض. تمتد الصحراء حتى تبتلع السماء بنجومها في جوفها المليئ بذرات الرمال التي أرهقت عينيَّ، وأصمَّتْ أذنيَّ!

مضتْ عدة سويعات من الليل حتى قارب الانتصاف، أجريتُ عدة مكالمات من هاتفي لبعض زملائي في العمل، ولم يزل الشيخ في صلاته. تعجبتُ كثيرًا، وأخذتني الدهشة من طول ركوعه وسجوده، وسألتُ نفسي ماذا يصلّي الآن وقد انقضى وقت العشاء بكثير، ثم لماذا يمكث طويلاً في ركوعه وسجوده، وإلى من يتحدث. لقد سمعتُ همساته تخرج من قلبه إلى فمه دون أن تطلع إلى أحد. أتطلعُ إلى مفردات الخيمة، فلم أجد ما يسدُّ رمَق إنسان يريد أن يعيش بقية حياته، فهي بالكاد تمنحه يومًا أو يومين.. فكيف يعيش في هذه الصحراء القاحلة؟ أليس نفس الطريق الذي سلكه ذلك الصوفي منذ سبعة قرون مضت، وكان يأتيه الطعام والشراب من حيث لا يحتسب.. لقد قرأت عن الصوفي محمد بن عبد الجبّار النِفّري قوله: «لا تشرب من يد أحد غيرك، فيزداد عطشك». وقوله أيضًا: «إن أكلت من يدي لم تطعك جوارحك في معصيتي».

فلما سمع همساتي انتبه لي. ابتسم وقال:

- صدقت يا بني، وقال أيضًا: «إنما تطيع كل جارحة من يأكل من يده».

فقلت له:

- كيف أناديك؟ أأقول يا شيخي، أم يا سيدي، أم يا مولانا؟

ابتسم ابتسامة واسعة، وقال:

- لن يسعك المكان أو الزمان لتقول لي ما تودُّ قوله، فأنت مغادرٌ في

صباح الغد، وستنسى كما نسي الخلقُ خالقهم. ثم أنا لستُ من هؤلاء الذين ستناديني بهم.. هيييه يا بني.. الغياب عن الخلق حضور للخالق.

- اللّه اللّه عليك.. اتسعت رؤيتك، فضاقت عبارتك.

نظر إليَّ نظرة فاحصة، وغاصت عيناه في مسامي، حتى أنني ظننتُ أنه قد غضب مني، أو من قولي، لكنَّه غضَّ الطَّرف عنِّي فجأةً كأنه قد استرجع وعيه، أو تراجع عن قرار، ثم قال:

- أتعرفُ من قال هذه الأقوال يا بني؟

قلتُ له بفرحة الغانم مستعرضًا ما أعلمه عن هذا الصوفي الزاهد:

- لقد قرأت رسالة الدكتور جمال المرزوقي عنه، وبها كتاب النفّري النصوص الكاملة له، وأقصد كتابه (المواقف والمخاطبات). وقد وقفتُ عاجزًا عن فهمها، حتى أنني قد توقفتُ كثيرًا عند مقولته المعجزة «كلما اتَّسعت الرؤية، ضاقت العبارة» فأغلقتْ عنِّي طريق الفهم عن بقية المواقف، لكن شيئًا ما علق بقلبي لم أستطع التخلص منه، رغم أن عقلي يرفض الصوفيَّة بما نراه منها اليوم. ابتسم لي، وقال:

- أسمِعني يا بني مما قرأته.

فاسمعته بما علق في ذهني من عبارات للنفّري.

حينما أسمعته مما أحفظه من كتاب "النفّري" ووصلتُ إلى مقولته الشهيرة: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»، أسلم قدميه للريح البعيدة، حافيًا، أشعثًا، أغبرًا، لا ينطق العبارة مخافة الانزلاق من سماء دنياه إلى صحراء قلبه، "دنياه" التي ضاق بها، وضاقت به، حتى أضحى من ليله

صامتًا إلى الأبد. حينما عاد من انتفاضته وهدأتْ سريرته. سألني:

- كيف انتقيت هذه العبارات يا ولدي؟

- لقد قرأتها من دراسة الدكتوراة للمرزوقي أستاذ علم التصوف الإسلامي بجامعة عين شمس عن مولانا النِفّري.

- وماذا فهمته منها؟

- بل فهمتُ الدكتور جمال منها. أما أقوال النِفّري فقد صارت لغزًا، وحكمةً، ولغةً لخّصت وأوجزت، وكثّفت، وأضاءت روحي وعقلي. فتعلمتُ منها التركيز والإيجاز، فما نطقتُ بعدها إلا بإيجاز، وما دخل قلبي وما خرج منه إلا بأقوال هذا الرجل. وما أريد منك إلا أن تسمح لي بأن ألازمك هذه الليلة في صمت، وأدب، فربما تصفو روحي في خلوتك، فأفوز بما أصبو إليه، أو أقترب من هذا العالم الخفي.

فقال لي:

- أرى فيك القبول، والميل إلى الطريق، لكنك لن تقوى على التحمّل، بل ولن تقوى على مواجهة نفسك، فالطريق صعب، والألم رهيب، والغفلة خوف، والخوف علّة الغافل، وأنت ما زلت غضَّ الجسد، زائغ البصر، هائم الروح، ونفّسُك أعلى مكانًا من روحك في دنياك.

- لقد أتيتُ إليك دون إرادتي، ومدفوعًا لشيءٍ لم آلفه عني من قبل، وأصدقك القول بأنني قد استرحت لك، فلا تحرمني من مرافقتك كي أتعلم منك ما لم أتعلمه في حياتي كلها.

- كانـت ليلـةً واحدة ثم أضحـت مرافقة.. أهي ذلَّة لســان إذن أم نطق لسانك بما تحدّث به قلبك؟

فقلتُ له:

- لا أعرف أن أحدّث قلبي بما يدور في عقلي وما تحدّثه نفسي، فلا أجد في قلبي إلا بما تعلّق فيه من أمور الدنيا وزينتها، وما كنتُ أروم هذا الطريق من قبل.

ثـم نظـرتُ إلى عينيـه، وأكملتُ: إنها عينـاك يا سيـدي.. أخذتَ عقلي وقلبـي، وأحكمت قبضتها علـى نفسي، فنطق لساني بما تبغيـه أنت، وليس بما أهواه أنا.. حتى بدا لي بأنك الوقت الممتد وأنا ثوانيه ولحظاته. فسكنتْ روحي، وهدأت أنفاسي، وبات الأمل في قلبي أن يستجيب لما يدخل فيه من سكينة.

فنظر إليَّ مليًا، ولاذ في صمتٍ عميق، ثم قال لي فجأةً:

- ما بال والد زوجتك فيك؟

فلم أفهم مغزى سؤاله المفاجئ لي. فقلتُ له مستغربًا:

-أتعرفه يا سيدي؟

فقال:

-أرى فيك بعضاً مما فيه.

-أتعرفه حقاً يا سيدي؟

-لم أره من قبل. لكن رائحة كلماتك تحمل عبير كلماته.

- لقـد زدتنـي حـيرة وغموضًا ولهفـة. وأعدتني مرة أخـرى إلى دنياي وأسرتـي، وجعلتني أُعيد تاريخي القديم مـع "الشيخ دسوقي" عندما أردت

أن أخطب ابنته. أنت يا سيِّدي الذي استدعاني.. إليه رحمة الله على روحي إن لم تأخذني إليك.

ابتسم لي. وقال:

- في الغد إذن.. حين يأذن ربّ العزة بذلك. والآن قم ونَم.

****

لا أستطيع تحديد ما جذبني إلى هذا الشيخ، ولا كيف صرّحتُ له بمرافقته، وأترك دنيتي ونجاحاتي وبهجتي، لألوذ إليه في تلك الصحراء الموحشة.. هل هو ميراث قديم رسخ في عقلي منذ الصغر حينما كنتُ أتلاشى في حضرة الدراويش، وأغوص في لُجّة أشعارهم وأغانيهم وذكرهم؟ أم هو ذلك النداء الخفي الذي يكاد يدفعني إلى ذلك الطريق دون اختيار منّي إليه؟ أسئلة خرجت من عقلي الذي ما زال متشبثًا بحياته الدنيوية، ورافضًا لذاك الطريق رغم ما مرّ عليه من عوارض داهمته في عرينه فهزته في يقينه. لم أستطع دفع نفسي للنوم، فهذه الصحراء المترامية أمامي في هذا الليل البهيم، وتلك الرائحة الجافة التي تملأ الرئتين بالهواء النظيف يدفعاني إلى اليقظة. جلستُ أتأمل صفحة الصحراء وتموجات رمالها وانعكاس نور القمر على ذوائبها، فتصنع تيجانًا من نور تتوهّج في عينيَّ، فأزداد إصرارًا على اليقظة. عصا الشيخ التي زرعها أمام خيمته ترنو إليَّ بإمعانٍ كلما نظرتُ إليها، كأنها تراقبني. فركتُ عيناي فجأةً حين لمحتُ العصا تتحرك نحوي، ويتحول رأسها إلى رأس ثعبان تتوهج عيناه في نور القمر. أتحركُ يمينًا ويسارًا، فتلفُّ رأسها حولي تتعقبني. أصابني الهلع..

وأســأل نفسي: أتــدري العصا ما يــدور في عقلي؟ فأنــا لم أفكّر في الهروب بعــد! ناديــتُ على الشيخ ولا مجيــب.. جريتُ نحو الخيمة فلــم أجد الشيخ. خرجــتُ من الخيمــة، وأسرعت نحو سيارتــي أنام فيهــا، وتحاشيتُ النظر إلى العصــا. ومــا إن ابتعدتُ قليــلاً إلا ورأيت الشيخ يجلــس على حصيرته فــوق أعلى قمة ربوة مجــاورة. الشيخ ساجدٌ، والحصيرة تعلــو الربوة كأنها معلّقــة في الفضــاء، والصمت يلفُّ المكان. فجلستُ أرنــو إليه، وأمعن النظر بين الحصيرة والعصا والشيخ.. وأنتظر.

(2)
الشيــخ

لم يسعه المكان الذي هبط فيه، بعد رحلة اغتراب امتدت فوق حصيرته المسقوفـة بكهفـه، في حضـرة الرهبـوت، فانبعثـتْ في هدأة جسـده رائحة الفجـر الصامت، وانخـرط في رقص البلابل شغفاً لضمـة الحلم الخارق، فانفجـرتْ منـه اثنتا عشـرة عينـاً، أغرقت سمـاءه، فلم يجد مـلاذاً غير حصيرتـه المسقوفة فوق حـد كينونته، فانطلق إلى حيث لا يـراه إنسان، ولا يرصده جـان، فاحتبس بذاته عن ذاته، حتـى أدرك غيبوبة الصحو، فحطّ بحصيرته، والتزم السكينة، فغلبت عليه المواجيد.

لم يدرك الشيخ أن مواجيده ستأخذه إلى منطقة اللاعودة، حيث تخطّى الحد الفاصل بين كونـين منفصلين ومختلفين، دنياه التي تركها وراء ظهره مـن زمن ليس بالبعيد، وكون جديد توقّف فيه الزمن عن الجريان، وتلاشى فيـه أي مكان لقـدم، فأصبح منـذ أن تخطّى الحد يسبـح في ملكوت جديد عليـه، تسبقـه عصاه في السباحـة، بينما تأخذ حصيرتـه انحناءة الركوع، كأنها هي الحد الفاصل بين الكونين.

كان الاحتباسـ في الذات هو مجمل غايته من قبـل، وصمته الذي التزم به. حتى عندما جاءه مبكـراً ذلك الهاتف العجيب الذي يأتيه عندما يدخل في غيبوبة الصحو، وصحو الغيبوبة، لم يحاوره كعادته عندما لاحظ شروده، بل وجّه له جملته التي أطاحت بعقله، وأفاقته من مواجيده:

- إن عبدته لأجل شيء، أشركتَ به.

فردَّ عليه باستغراب:

- لأي شيء؟

قال الهاتف:

- نعم.. لأي شيء.

فعاد إلى شروده وصمته، بعد أن ظل منتظراً البشارة بالعتق.

كانت العبارة هادرة، وقاطعة، ونافذة، بل وأقوى من عبارة الشبلي (طرفة العين من غير ذكر الله كُفْر). حين مرّت عبارة الشبلي في مخيلته صنعت مع عبارة هاتفه بحران من التيه، لا ملاذ فيهما، أو منهما، إلا بالفناء فيه، أسلم نفسه للريح البعيدة، ثم مضى، لا يألو على شيء.. أي شيء، حتى لا يقع في قرابة الشرك به، فيخرج من طائفة الفانين فيه. أخذته رجفة هزّت جسده كله، وأخرجتْ ما به من عرق بلل حصيرته فثقلت، وتأرجحت به، فغاب عن الوعي بُغية اللجوء إلى تيه جديد، ووجْد جديد، وكون جديد. فخارج كونه أكوان عديدة قد دخل بعضها في لحظات تجلياته، لكنه لم يستغرق في أي منها سوى بارقة كلمح في البصر.

تدثر بجسده النحيل، حين عبر الطريق نحو التيه. لم يكن الدخول في التيه ضالته المنشودة، كان التيه امتداداً لحلمه الذي ألمّ به ليلة أمس، حيث حديث الهاتف الغامض ما زال يضرب بقدميه كبد الصحراء الملتهبة، عابراً رؤوس الجبال وسهولها، يلملم في فمه أشلاء الليل العالق في دهاليز الكون الآخذ في الاتساع تحت قدميه. لم تسعفه ذاكرته التي اقتربت من

حافـة الأفق أن تجعله يستعيد القدرة على معرفة ماهية النهار، الذي يجري فوق رأسه متواتراً، أو يدرك اللحظة التي يسترد فيها وعيه المفقود، فيذهب في الذاهبين إلى الله، حسبما خطط لنفسه أن ينال الحظوة دونما أي شيء يبتغيه، فيهرب من غواية الشرك، إلى حضرة الأحدية.

ساد الصمـت في معيته، حتى جاوز حدود الكون المألوف لديه، فامتد به الزمان، وانساب من بين أصابعـه تسبيحاً للخالق العظيم، وتوهّجتْ روحه، حتـى صار متوحداً مع ذاته.. ذاتـه التي أخذتْ في الانكماش والتلاشي كلما تمـدد فيها الزمن، حتـى توقّفَ، فتلاشت. فأخذته الجذبـة مرة أخرى إلى نقطة اللاعودة، إلى ذلك الحد العجيب، أو ما يسميه علماء الكونيات (أفق الحـدث).. حيـث شاهد حزم الضـوء المحبوسة منذ بـدء الخليقة، تتماوج أمام عينيه لتحكي له سراً من أسرار الكون الذي أودع فيه رب العزة القدرة على الاتساع..

مـاذا بعـد؟ سأل نفسـه، قبل أن ينسكـب النور في عينيه. أخـذتْ نفْسُه تتسـع باتساع الكون، لتمنحه مزيداً من التجول داخل ذاته، ليضبطها حيناً، ويحاكمهـا أحياناً أخـرى، ويرصد ما علق بها من وشائـج ألمّتْ به دون وعي منـه. لم يجد جوابـاً لسؤاله سـوى الصمـت. فالصمت لديه لغـة، وحياة، وعبادة، وحال، ومقام. فجاءه هاتفه وهو في تلك الحالة فسأله:

- أما زلتَ أنت معك؟ فقال لهاتفه:
- لقد ذهبتُ مع الذاهبين في الدنيا. فقال الهاتف:
- ألم تكن دنياك يوماً؟ قال:

- لم أعد أذكرها أو أتذكرها، بعدما احتبستُ في ذاتي زمناً، أدخل غيبوبة الصحو، أتقلب فيها من حال إلى حال، لأخرج منها كيفما دخلتُ، دون أن ينالني سغب أو تعب، فأدركُ اللحظة، وألمحُ العبرة وهي تنساب في ألق نحوي، فتمنحني الرضا والقناعة، فينفك أسري، ومن ثم أنطلق إلى حيث تضيق العبارة مني، فأرى..

- ماذا رأيت؟ ماذا رأيت؟!

ولا مُجيب..

لقد اتسعت رؤيته اتساعاً، انقطعت فيه العبارة، وغاب عنه الصحو، وثبت حاله، ففاضت في روحه اشراقة إلهية، أفقدته ذاته عن ذاته، فارتقى، واتقى، فانتقى، فكان الحرف حيث بقي في الرؤية بغية منتهاه. لقد صار الشيخ فانياً عن ذاته، وبلغ نهاية الطريق، وأشرقت له السماء، فأضاءت روحه، وصفتْ، وتجلتْ، فازدادت خطواته، وأضحتْ حصيرته وعصاه كل مملكته، فأطاعاه، وصاحباه، فاختار الصحراء سكناً وملجأً وحياة، يستظل بشمسها نهاراً، ويستظل بخيمتها السمراء ليلاً، وأتُمِرت وحوشها بأمر عصاته، وباعدتْ حصيرته بينه وبين حشراتها، وفاضت له السماء بالسكينة، حتى ألقت له السماء في طريقه ذلك الفتى، ليبدأ دورة جديدة مثلما بدأ.

كنتُ أنا ذلك الفتى، وكان هو الشيخ.. لم أشأ أن أسأله عن اسمه وكُنيته، ومن أين أتى، وكيف صار عبداً ربانياً؟ وجهه يقترب من وجوهنا، إلا من لحيته الكثيفة التي لم تعرف مقصاً من قبل، ولغته صافية إلا من بعض

الغموض فيها، أحياناً أفهمها، وابتسامته لا تفارق شفتيه أبداً، ولسانه لا يتوقف أبداً عن الدعاء إلا فيما ندر، لا أنكر أنني خفت منه حينما رأيته لأول وهلة، لكنني قد استرحت لكلماته. فقد كنتُ أراقبه في خلجاته، وتجلياته، وفيوضاته، وهمساته، وكنتُ ألحظ بكاءه في هدأة الليل، وأسمعه يردد آيات من الذكر الحكيم، فتفيض روحه عنه، وأسمع حشرجات نفسه وهي تجأر من الخوف حين يدهمها بآية (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)، فيزداد لهفة للقاء الحق، ويغيب عن الوعي ساعات دون أن يدري بحاله، وحين يفيق يردد أبياتاً لم أسمعها من قبل، وهو يبكي بشدة قبل أن يعود لغيبوبته من جديد:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلتُ الرجا مني لعفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته بعفوك ربي، كان عفوُك أعظما

وما أن سمعتُ هذين البيتين إلا وانهمرت دموعي، وبكيتُ كما لم أبك من قبل، وتمنيتُ أن يكون هذا الشيخ في وعيه ليشرح لي عن سر هذا البكاء لكلينا، ومن قال هذين البيتين. فانتظرته طويلاً، حتى فاق من غيبوبته، وكنتُ أظنه قد فارق الحياة، لكن تنفسه ببطء شديد قد طمأنني عن حالته. نظر إليّ مجدداً نظرة بها رحمة ورأفة، وقال لي:

- ألم ترحل بعد أيها الفتى.. كيف رأيتني؟ ألم يأخذك الخوف منّي؟ كيف صمدتَ طيلة هذه المدة دون أن يعتريك الملل؟

قلتُ له، وأنا كلّي شوق لسماعه:

- ظننتُك متّ. قال لي والابتسامة لم تفارق شفتيه الواهنتين:

- من لم يمتْ لم ير الحق. فقلتُ له، والدهشة تغالب وجهي:

- أكنتَ ميتاً حقاً؟

- لـن تفهم يا ولدي مـا سأقوله لك. قلتُ لك قـمْ ونمْ.. وها قد خالفتَ أمـري، وأخـذتَ تتأملنـي، وترقب حالي في حِلّـي ووجدي. فقلـت له والنوم يداعب جفوني:

- كيف أصل ما وصلتَ إليه يا سيدي؟

- بتتبع المقامات. فقلت له بعد أن طار النوم من عيني:

- وهل للوصول مقامات يا سيدي؟

- للوصول مقامات، وللمقامـات بدايات، وللبدايات درجات، وللدرجات ترقّيـات، وللترقّيات شهود، وللشهود دليل، وللدليل إثبات، والإثبات لا يتأتى إلا بالفناء فيه..

فسألته:

- وهل للوصول طريق؟

- للوصول طريقان: الجذبة والسلوك.

فسألته:

- وما الطريق؟

- أن تبدأ به يا ولدي.

فسألته:

- بم أبدأ يا مولاي؟ قال:

- بالحق يا ولدي.. بالحق.

فبـدأتُ بلمـح منه أبتدئ. فمـا أن رآني أغالب النـوم.. أشار إلى الركن البعيد من الخيمة، وقال:

- في النــوم إفــادة لك يا ولدي بعد أن أعياك الســؤال.. فنم إذن، بارك الله فيك.

- ها قد نمتُ، فلا تحرمني من قربي منك.

وفي لحظة نمتُ كأنني لم أنم منذ سنين.

****

حاسبــي يا نهى.. حــاذري يا بنيتــي.. خلفك مباشــرة يركض عسكري الأتــاري. انحري يميناً، أدخلي شــارع شامبليون. أخذتُ أصيــح عليها وأنا أجــري وراءها. تتدافع الأقــدام حواليها. الكثير من الشباب في عمر نهى ما زالــوا يهتفون (عيش.. حريــة.. كرامة) توقفتُ فجــأة، لم أستطع التنفس. خارت قواي، انزويــت جانباً، استندتُ على سور البنك الأهلي، بينما عيناي ظلتا تتابعان ابنتي نهــى وهي تهرول وسط الجموع. غامت الرؤية، وانزلقتْ الــروح من أطراف قدمــيَّ، وأخذتْ تتسرب منــي. لم أدرِ بنفسي، ورحتُ في سبــات عميق.. لماذا تلبس الملائكة الأردية البيضــاء دوماً، ويشع منها ضوء يأخــذ بالأبصــار.. وإلى أيــن سيأخــذون نهى بعيــداً عنّي؟ تعــالي يا نهى. تعــالي إلى حضــن أبيكِ.. رفرفت فوقــي قليلاً، ولوّحتْ بيديهــا الشفافتين، واختفت وسط الملائكــة.. نعم إنهم ملائكة.. وماذا يكونون غير ذلك.. كتل مــن الضــوء المهتز تبين ثم تختفــي وراء تلال من الثلــوج المتوهجة.. أخذتُ بمناداتها: نهى.. نهى! أحسستُ بمن يلمسني برفق ويهمس في أذني: إصحى يا ولدي.. فقلتُ له:

– وجـدتُ نهـى تأتـي مـرة أخـرى، وتعاتبني علـى تركها وسـط شارع شامبليون وحدها. فصحتُ بها: نهى.. ابنتي.

فوجدتُ وجهاً مألوفاً يواجه عينيا بعمق، ويقول لي:

– نهى في الجنة إن شاء الله.

صمـتُّ قليـلاً، وأنـا أقلّـب عينيا بـين وجه الشيـخ وصفحـة الصحراء المترامية، ثم انفجرتُ فجأة في نوبة بكاء، فضمّني الشيخ إلى صدره، فعدتُ مرة أخرى إلى النوم.

حينما صحوتُ تماماً، واجهني الشيخ بسؤاله لي:

– أتعاقب نفسك، أم تعذّب روحك يا ولدي.. هوّن عليك. فقلت له:

– لم أصـل بعد لحد العقاب يا مولاي. إننـي أحاسبها لأبعدها عنّي. أما روحي.. فلا أملك منها شيئاً حتى أعذّبها.

– هل أنت مسئول عن موت ابنتك البِكر؟

– وكيف عرفتَ؟

– حينما تخرج الأسرار من القلب تسكن العين، والعين تبوح، ولا تكذب.

– آه.. يا نهى.. ابنتي البكر، دنياي، وأول فرحتي، وسكينة روحي!

– لكن الله عز وجل قد منحك ولدين غيرها.

نظـرتُ إليه بتفرّس واندهاش، وعندما هممـتُ بالكلام، أشار إلى فمه بيده بالصمت. فقلت:

– قلبي موجوع.. وعقلي لم يعد مثلما كان في صباي.

– جئتَ هارباً إذن؟

- منها.. نعم.

- وكيف عرفتَ طريقي؟

- أنت من جذبتني إليك.

- كيف؟ وأنا لا أعرفك، ولا تعرفني؟

- أنا لا أعرفك نعم.. لكنك قد عرفتني يا سيدي. كان هناك شيئ منك يظهر لي كومضة في عقلي كلما يشتد بي الأسى.

- هل ترى ذلك الجبل؟

- نعم.

- اِذهب إليه، وأجلب لي بعض الصخور الجميلة من ذؤابته، ثم عُدّ.

أسرعت عن رضا اتسلق الجبل حتى وصلت لذؤابته، وانتقيت من الصخور ما يريده الشيخ، وعدت مرهقاً. فلمُا رآني، ابتسمَ، وألقى بالصخور جانباً. فقلت له:

- هل تعاملني كما عاملتِ الآلهة الأغريقية سيزيف؟ أنا لم أهرب من ملاك الموت يا سيدي.

- يا ولدي.. حاشي للّه.. أنا لستُ إلهاً، وأنت لستَ كسيزيف هذا.

- وماذا ستفعل بالصخور الجميلة يا سيدي؟ بل كيف تحكم على جمالها، وما هي إلا صخور؟

- العين ترى الجمال في كل شيئ، حتى في الصخور. سأنتقي منها الأجمل، فأحطّمها.

- لماذا؟

– حتى أكسر فيك غرورك، وهو أولى خطوات الترقّي.

– ألا تراني متواضعاً؟

– الغرور يأخذ، والتواضع يُعطي.

– لقد أخذ مني الغرور ابنتي.

– لقد نالت الشهادة من أجل هدف نبيل.

– وأين النبل في موتها؟ وقد أخذت مني الأبوة معها. ولم تأتِ الثورة بثمارها بعد، بل أصبح الحال أسوء مما كان.

– الثورة يا ولدي ـ أي ثورة ـ تأتي لتردَّ للناس حقوقهم المسلوبة.

– أي حق يأخذ خيرة شبابه، إما إلى السجون، أو إلى الموت؟

– لكنها عند ربها راضية مرضية.

– الرضا أن تعيش لترضى، لا أن تموت لهدف الرضا.

– هل كفّنتها بيديك؟

– ألقيت على وجهها نظرة الفراق الذي لا يأتي بعده لقاء.

– بل اللقاء القريب إن شاء الله.. وماذا وجدتَ يا ولدي؟

– وجدتُ نوراً.. وابتسامة . . . ثم بكيتُ. فأمال على رأسي بيديه، وهدهدني، وقال:

– هي في السماء عروسٌ، وأنت على الأرض تجتر التعاسة لفقدها. ليس هذا حال المريدين.

– وهل أنا هنا كي لا أكون مريدك يا سيدي؟

- أن تكون مريداً، فانزع عن نفسك التعاسة، وادعُ لروحك السكينة.

- ثم ماذا يا سيدي؟

- لا تتعجل يا ولدي الطريق. فأمامك طريق آخر يجب عليك أن تخوضه وحدك.

- وما هو؟

- أن يكون يقينك أعلى شأناً من شكك.

- وهل لديك يقين في شكّي؟

- أراك تُحسن الحديث كأطرابه.. الشك مغبّة الغافل، والغافل ليس له طريق سوى الشك. فتخلصّ من شكك تسكن جوارحك.

- حيّرتني معك أيها الشيخ.

- الحيرة لا تصحُّ مع الطريق، والطريق ليس هروباً من حياتك، بل هو الحياة ذاتها.

- وهل حياتي تليق بالعابد بعد أن فقدتُ عقلي؟

- وماذا أعطاك عقلك؟

- جاء بي إليك.

- أنت الذي حيرتني فيك يا ولدي.

- أريد أن أعبده حق العبادة، ليجمعني مع ابنتي.

- ألم تعلم يا بني أن الأقدمين من الطائفة قالوا:

(إن عبدته لأجل شيء، فقد أشركت به)

- ليكن إذن.. أن أعبده لذاته.

- قم إذن، واذهب إلى ذؤابة الجبل مرّة أخرى.

- وهل لهذا الجبل قداسة؟

- كل الجبــال.. فيها، وبها بدأ أولي العــزم من الرسل: سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد.

فوجدتنــي أهرع إلى الجبل، غير مبالٍ لصخوره المدببة، ولوعورة طريقه إلى الصعود، وأنا أحمل الرجاء والأمل أن أجدني في غير ما عليه أنا.

لقد نسيتُ نفسي، وسيارتي، ومأموريتي، فقد أخذني إلى دنياه برغبتي، وعـدم رضاه، فنهـرني، وأخافني، وأرشدني إلى طريقـي الذي ضللت منه، وفيه، وأخذ يشرح لي عقبات الطريق، وكيف أفاديها، وكيف أخرجُ منه دون جهـد. لكنه وجـد مني إصراراً في وجـودي معه، فأخبرني عـن ذلك الأسد الذي رأيته في غبشة المساء. وقال لي:

– لقـد أبعدتـه عنك اليوم. فكيـف في الغد، وأنا دائـم الترحال، لا أكاد أستقـر في مكان، حتـى تأتيني بعضٌ مـن علائق الدنيا فأرحـل. ثم ناولني عصـا صغيرة من شجرة صحراوية، ما زالت العصـا غضة، حين أمسكتها تندّت منها رائحة زكيّة غمرت يدي وأنفي، وقال لي:

– هذه ستحميك من عوائق الطريق، فلا تضيّعها.. نظرتُ إليها بإهمال.. وسألتُ نفسي كيف ستحميني هذه الفسيلة.. لكنني استرجعتُ نفسي، وقلت له بإصرار:

– لدي أسئلة كثيرة، وأريدك أن تجيبني عليها ـ أعزك الله ـ فقال لي:

– إرحل إذن. فإذا ما احتجتني وجدتني ـ إن شاء الله تعالى. إذهب الآن يا ولـدي، فستجد سيارتك سليمـة، وطريقك آمن كيفمـا وصفته لك. وإذا كانـت لديك رغبة في سلوك طريقي حقاً، فعليك بطاعة الله ورسوله، وداوم على الذكر، وقراءة القـرآن بتأمل وتدبر، وافعل الخير دون انتظار الجزاء، وابعد عن نفسك قدر بعدك عن السماء، فإنها أمّارة بالسوء، إذا طاوعتها، فـلا مكان لك عنـدي، ولن تجد لـك طريقـاً يُخرِجُكَ إلى بدايـة الطريق. إذهـب يابني.. إذهب.. وأنت تعرف خيمتي ومكاني. فعندما يأخذك الشوق

والرغبة في زيارتي، فتعالى وحدك دون رفيق، واجعل من قلبك دليل، ومن روحك نور، ومن لسانك صمت، واكتم السر، واحفظ العهد.. ستجدني وحدي كما شاهدتني وحدي، فالوحدة قدر، والقدر مكتوب، والمكتوب لا يعلمه إلا علاّم الغيوب، وعندما تجد روحك أعلى من نفسك فاعلم أنك قد بدأتَ، فإذا بدأتَ، ستجدني في حياتك لا أفارقك، ولا تفارقني، حتى يقضي بنا الحقُ أمراً كان مفعولا.

انتبهتُ إلى الطريق وأنا أقود سيارتي مبتعداً عن خيمة الصحراء إلى بساط ماء البحر، نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها قد منحتني ساعة فقط بين الغيبة واليقظة.. فسألتُ نفسي.. ساعة واحدة فقط غطّتْ كل تلك الأحداث.. كيف قضيتُ ليلتي هذه إذن.. والأسد، والخيمة، وشلّال الماء المنفجر بين رأس صخرتين، وذؤابة الجبل، والشيخ، وحواري معه عنه، وعني، وعن النِفّري. أين ذلك الليل الذي غمرني في قلب الصحراء، بحثتُ عن هاتفي فوجدته لم يسجل أي مكالمات صادرة أو واردة.. وماذا عن محادثتي مع "أحمد بيومي المحامي"، والمهندس "عبد الحميد لبيب"، اللذين ينتظراني في مرسى مطروح. تناولتُ هاتفي وطلبتُ "عبد الحميد" لكن الشبكة كانت قد سقطت لبعدها عن برج شركة المحمول. تصببتُ عرقاً غزيراً ملأ جبهتي، فمسحتُ بكف يدي على جبهتي، فلاحظتُ رائحة زكية انتقلت من يدي إلى أنفي، فتحسستُ علبة المناديل المعطرة أمامي فوجدتها مقفولة. فألقيت يدي مرة أخرى على المقعد المجاور لي، علّني أجد مصدر هذا العطر، فتعسّرت يدي بعصا ندية عطرة، قُطِعتْ للتو من

شجرة عطرية.. فدستُ بقدمي على الفرامل فجأة، فانحرفت السيارة يمين الطريـق، وكانت سيارة أخـرى تتبعني، فما لبثتُ هنيهـة ألتقط أنفاسي إلا وصوت سائق السيارة التي كانت خلفي يهتف بغضب.. (حاسب يا حمار).. فقلت له: متأسف يا باشا.

أخـذتُ أقلّبُ العصـا، وأشمُّها، وألتفتُ خلفي، ثـم ترجلتُ من السيارة، وهتفتُ بأعلى صوتي.. أحقيقي أنت أيها الشيخ.. أم كنتَ وهماً. لقد باعدّتَ بيني وبين عالمي، وصرتُ لا أعرف نفسي، أَ وهمٌ أنتَ، أم حقيقي؟ فإذا كنتَ وهمـاً، فمن أيـن أتتّ تلك العصا ذات الرائحة الزكيـة، وإن كنتَ حقيقياً.. فلماذا توقّف الزمن عني؟ وانتابني الشك في قواي العقلية..

كان الليـل قد أرخى سدولـه على خيمة الصحراء، ولم أعد أرى إلا أنوار الطريـق المتباعـدة، فأخذتُ نفساً عميقـاً كأني سأغوص في البحر، وقدتُ سيارتـي في طريقـي إلى مرسى مطـروح، حيث تنتظرني بقيـة اللجنة التي أترأسهـا لتقييم أرض الشركة بالمدينة. عندما وصلـتُ كان أول شاغلي أن أسـأل المهندس عبد الحميـد لبيب لماذا لم يـرد على تليفـوني حين طلبته مراراً. فقال لي:

- لقـد ضللتَ الطريق إذن عند محـور العلمين. فأخبرته عما حدث لي. فضحك ضحكة عالية وقال:

- إحمـد ربنـا يا باشمهندس أنـك لم تتعسّر في أحد الألغـام. فقلت له: والشيخ، والأسد، والخيمة؟ فردّ باقتضاب:

- ماذا؟ هذا وَهم.. كل ما رأيته وَهماً. لقد مررنا بنفس الطريق، وتوقفنا

عند نفس النقطـة، وانجذبنا لجمال الصحــراء، ودخلنا بضع كيلومترات، ولم نجــد شيئاً مما شاهدته، لا شيــخ، ولا خيمة، ثم قهقه عالياً، وردد.. ولا أســد.. إسأل الأستاذ أحمد بيومي المحامــي، فأجاب بالنفي والدهشة تملأ عينيــه. وعقّب على كلام عبد الحميد.. أرأيت أسداً ولم يفترسك.. قلنا لك تعــالى معنا، ثم نادى على شيخ مطروحي عاش حياته كلها في تلك المنطقة: يــا شيــخ "عنيز" تعــالى اسمع مــا يرويه رئيسنــا في العمل. أتى علــى عَجَلٍ ليرحب بي، ويهنئني على سلامتي، ثم قال:

- ماذا حدث لك يا بني في الطريق؟ فرويتُ له ما شاهدته. فلم يندهش. وقال:

- هــذا الشيــخ همّام من قبائــل أولاد علي. اعتدنا عليــه أن يظهر فجأة في صحرائنــا كل حين. إنه رجل زاهد، لا خــوف عليك منه، هو هكذا يظهر فجأة ويختفي فجأة، ولا نعرف عنه كيف يعيش وسط هذه البراري.. والحقُ أننــا لم نسألــه. نأخذ منــه البركة والنصيحــة والكلمة الطيبــة كلما مررنا عليــه بأغنامنا، ولم يقبل منــا هدايانا، وإلحاحنا عليه كثــيراً أن يقبل حتى عنــزة وتيس يرعاهما ويستفيد مــن نتاجهما، ولكنه كان يرفض بإباء، وكان يقــول لنــا في كل مرة نعرض عليه المساعدة (وقــال لي: إن أكلت من يدي لم تطعــك جوارحــك في معصيتي) ولم نفهــم عمن يتحدث عنه الــذي قال له ذلــك القول.. أقابلته صح يا ولدي؟ قلت لــه نعم. قال: وأعطاك شيئاً؟ قلت فقط هذه العصا. قال: لم يعطها لأحد من قبلك أبداً.. لقد وجدَ فيك ما لم يجده في الآخرين. أبشر يا ولدي لقد نلتَ منه الصحبة.. فقلت للشيخ عنيز: والأســد الــذي رأيته؟ قال: هذه الصحراء انقطع عنهــا الأسود منذ الحرب

الكبرى في العلمين.

عـدتُ إلى عملي بالقاهرة، وشغلتني الأحـداث الجارية في الشركة، وفي مصـر، ونسيتُ ذلك الحدث، إلا من بعض الأطياف التي كانت تأتيني على فترات متباعدة لوجه الشيخ وخيمته وعصاه. فأعدتُ قراءة رسالة الدكتوراة التي أعدّها الدكتـور جمال المرزوقي عن النِفّري، فوجدتُ تطابقاً بينه وبين هذا الشيخ. كلاهما سكنا الصحراء، وكلاهما يتحدثان بالإيجاز، وكلاهما غامضان في حياتهما، وفي زهدهما، وفي طريقهما، وفي أسرارهما. وتوقفتُ كثيراً عند الجملة الملغزة للنِفّري:

(وقـال لي: الليل لي، لا للدعـاء. إن سر الدعاء الحاجـة، وسر الحاجة النفّس، وإن سر النفس ما تهوى) فقررتُ أن أقهر النفس من علائق الدنيا، وأخـذتُ أبحث عن طريق يوصلنـي إلى الجذبة. وأن أسـير إلى هذا الشيخ الذي رأيته في صحوي مرة، وفي منامي كثيراً. لعلني أجد إجابة عمّا يعتريني من أرق، وإبهام، وغياب.

لم تكن زوجتي راغبة في سلوكي هذا الطريق، بل وأعلنت بأنها ستعود إلى والديها إذا ما غادرتُ البيت. وأنها ستأخذ ولديا معها. وبدأتْ بالصمت، ثم بالخصـام، ثم بالامتناع عن إعداد الطعـام لي، ولمّا لم تجد أية مرونة معي أرسلـتْ إلى والدها، وكان شيخ المسجـد الكبير في بلدتنا، ويعرف مسبقاً ما سيجـرّه على هـذا الطريق. فأتى علـى عَجَلٍ قبل أن أغـادر البيت، وعندما شاهـدني زائغ البصر، هزيلاً، أخـذ بيدي إلى الشرفة بعيداً عن طفليا بعد أن ربـت على كتفي، مما ينمُّ على موافقته بعيداً عن أعين ابنته، وهو يصيح

بصـوت غليظ ليُسْمعها ذلـك التقريع الذي يـردّني إلى عقلي.. ثم قال لي بصوت خفيض:

– أي طريق يا بني ستسلكه؟ قلتُ له:

– طريق النفّري.. أتعرفه؟ قال:

– ذلـك الـذي قال: وقـال لي: إما أن تدعـوني فآتيك، وإمـا أن أدعوك فتأتينـي. فمن دعى من يـا ولدي؟ هتفتُ له لأُسمعهـا صوتي.. الله.. الله.. يـا مولانا. جئتَ لتُنزلني من فوق النخلة فصعـدتَ أنت.. لقد أتتني الدعوة من الحق للغياب عن الخلق. فقال بصوت مسموع هذه المرة: ـ لكن يا ولدي لـك دنياك، وعملـك، وزوجتك، وبنيك. والعمل عبادة، بـل وأهم من طريق السلـوك هذا الـذي تبغيه. فلمَ الغيابُ إذن؟ وأنت مـلء السمع والبصر. أم أن استشهـاد نهـى حفيدتي قد أضرّ بعقلك يا بني.. تعالى معي إلى المسجد أُطلعك على كتابات الأجداد، وأخصصُ لك ركناً فيه تعتكف كلما يغُمُّ عليك الوجِد. ولا داعي للسفر البعيد. قلتُ له:

– وكيف أقابل شيخي إذن؟ قال:

– ومـن هو ذلـك الشيخ الـذي أسرك، وكبّلـك، وأخرجك مـن دنياك، وزرعك في عالمه؟ همستُ باسمه.. الشيخ همّام.. قال:

– الله الله.. هذا الذي من قبائل أولاد علي؟ قلت له:

-أجلْ. قال لي:

– أليسـ هو من أنقذك من أسده؟ نظـرتُ إليه نظرة استغراب ودهشة، وقلتُ له:

- بلى. هو هو.. قال:

- اذهـب إليه يا ولـدي.. اذهب.. فوالله الذي لا إلـه إلا هو لو وضعناك في جُـبٍّ، لوصل إليك هذا القطب. لهفي عليك يـا ولدي. لقد متَّ اليوم عن دنيانـا، لكنك ستنعم برؤية ابنتك نهى كما لم تنعم بها في حياتها.. البُشرى البُشـرى.. لن نـراك بعد الآن إلا في أحلامنا. فليغفـر الله لي هذه المشورة التـي ستقضي حتماً على سعـادة ابنتي. فإذا وصلتَ إليه لا تخبره عني.. هو يعـرف.. هو يعرف. وتركنـي بعد أن ودّعني وداعاً لا رجعـة فيه وهو يتمتم: لـكِ الله يا بنيتي.. لـكِ الله.. بالأمس فقدتِ ابنتك البكـر، واليوم تفقدين زوجـك.. لكِ الله. ثم التفـتَ إلي وعيناه تحمل الشفقـة، ربما لأنه سيراني لآخر مرّة في حياته أو حياتي، ثم همس في أذني:

- سآخذهـا عنـدي وولديها، حتى إذا ما رُدّتْ إليـك روحك، وعُدتَ إلى دنياك يوماً، فستجدها وولديك في كنفي. ناديتُ عليه وهو يبتعد مسرعاً:

- وكيـف عرفته يا أبتي.. كيف عرفت الشيـخ همام؟ لكنه لم ينظر إلى مرة أخرى، وآثر الصمت.

كان نسيبي (الشيخ دسوقي) مـن هؤلاء القوم الذين يستفتونهم النـاس في أعمالهـم وضمائرهـم، ولم أعهد عليه يوماً ميلاً عـن الحق، أو رغبة في هـوى، وكان قليـل الكلام مع الناس، فلا يتكلـم إلا إذا سُئل، ويصمت كثيراً حتى يأتي بالإجابة، لذا كان كلامه معي شافياً، دالاً، يحمل الرضا والتحذير معـاً، فهو يعلم مغبّة الطريق، ويشفق على منه، لكنه لم يُرِد أن يحرمني من تـذوق حلاوته، وقد توسمـتُ في إجابته لي الخير. لكننـي دُهشتُ كثيراً من

معرفتـه للشيخ همام، وتحذيره لي من عدم ذكر اسمه عنده (فهو يعرف). يعرف ماذا؟ وهل فيه اتصال بينهما؟ أيكون الشيخ دسوقي هو من رماني في طريق الشيخ همام.. أو أن الشيخ همام جذبني إليه ليقترب من عالم الشيخ دسوقـي.. هل كنتُ أنا اللُعبة بينهما؟ هل سُلبت مني إرادتي إلى هذا الحد.

أذكر بعد عودتي من مرسى مطروح، أن كان نسيبي الشيخ دسوقي في إحدى دروسـه في الجامـع الكبير بالبلدة، وأتاه أحد المصلـين فأشار إليه وهو على باب الجامع، وقال له دون مواراة، أو تردد:

- إرجـع يا واد يا محمود وصالح زوجتك، أنت على خطأ، وهي أم العيال الصالحة. خجل محمود من مقولة الشيخ دسوقي، وقال له:

- حاضر يا سيدنا.

وفي الدرس التالي حضر محمـود مبتسماً، وعندمـا أراد أن يسلّم عليه ويقبّل يـده، ابتسم الشيخ، ثم عبس في وجهه، وأبعد يديه عن السلام عليه، وأسـرّ في أذنيه بكلمات، فانسحب الرجل هادئاً من الجامع، ولم يبح الشيخ بما قاله لنا. وبعد انتهاء الدرس، وعودتنا إلى المنزل قلت له:

- رأيتك ابتسمت في وجه محمود، ثم عبستَ جبهتك فجأة.. فماذا قلتَ له؟

قال لي:

- هـو سر لا تبوح به لأحد.. لقد صالحَ محمود زوجته وجمع بها، ثم أتى إلى الجامع مباشرة دون أن يتطهر. لقد أنّسته فرحته الاغتسال. فقلتُ له:

- وكيـف عرفت يا مولانا؟ فقـال لي وهو يتأمل صفحة وجهي، كأنه يقرأ الطالع في عيني:

- أراك قد تقدمت قليلاً يا ولدي منذ عودتك من مرسى مطروح.

تذكرتُ هذه المحادثة التي جـرت بيني وبين نسيبي الشيخ، وأيقنت أنني هالـك لا محالة بينه وبين الشيخ همام، وزادتني إصراراً على الولوج في هذا الطريق، فالرحى لا ترحم من يقع بين راحتيها.. وقلتُ لنفسي.. بيدي لا بأيديهما.

لم تكن حالة عملي تسمح بالمغيب عنه، لكنني قد عزمت النية على المضي إلى تلـك الناهة التي طالتنـي طوعاً لا كراهية. فتقدمت باستقالتي من هذا الثقـل، وأزحته مـن على كاهلي ولم أندم عليه. فصوت الناهة كان أقوى من أن أتغلب عليها. وقمـت بتوديع زملائي في العمل، وقابلت عبد الحميد لبيب وأحمـد بيومي المحامي رفيقيَّ في الرحلة الأولى، وأخبرتهما سرّاً بما عزمتُ عليه، فضمّاني إلى صدريهما معاً، وقال لي أحمد:

- أنت تعرف أنني تخرجت من كلية الشريعة والقانون، وتعلم أيضاً أنني أميل إلى هـذا الطريق، ولكن اعتلال صحتي يمنعني من الخوض فيه.. من اليوم حتى أراك ثانيةً إذا كان هناك لقاء سأناديك بمولانا.

فابتسمـتُ له، وأشرتُ عليـه بأن يحفظ سرّي، ولا يبـوح لبشر عنه. أمّا المهندس عبد الحميد، وكان بمثابة ابناً لي، فقد أجهش بالبكاء حتى ابتلّت لحيته، وقال لي:

- أنت تعلم يا أبي أنني سلفي، ولا أؤمن بهذا العلم الذي يدعى صوفية، لكنني قد توسمتُ فيك الخـير والصلاح والتقوى، مما جعلني أستثنيك مما أعرفه عنهم من شطط.

قبّلتُ رأسه، ودعوتُ له بالهداية والتوفيق في عمله. وقلتُ له:

- إذا غُمّ عليك أي أمر.. فقط نادني تجدني. مسح عن لحيته، وابتسم، **وقال لي:**

- أمِـنْ أهل الخطوة صرتَ؟ أم ممن يتجولون في الزمن، فيأتون في غير أوقاتهم؟ ربتُّ على كتفه، وأمسكت بلحيته، وشددتها، وقلتُ له:

- لا تسخر مني يا بالمهندس. ربما يأتي يومٌ فتراني على غير هيئتي التي عشتها معي. إنك طيب يا عبد الحميد، لا أريدك أن تصدّق أو تكذّب إلا إذا رأيـت. فإذا رأيت، فاكتم مـا رأيت، وادع لي بالهداية، فأنت الأفضل مني يا ولـدي. وادعِ لابنتـي نهى. فهي من أخرجتني من عالمكـم، وأدخلتني في هذا الطريق. مسحت دموعـي التي انسالت من عيني، وحضنته بشدة كأنه ابني الحقيقي، رغم فارق السن القصير نسبياً بيننا. وتهيأت للغياب.

تركـتُ ورائي عملـي، وسيارتي، وزوجتي، وولداي، بـل وتركتُ نفسي، أو ما استطعت التخلص من بعض نزواتها، واتجهتُ إلى الطريق، حيث شيخي الجديـد الذي سأتلقى على يديه هـذا العلم الجديد القديم، وكل أمنيتي أن يتقبلنـي مريداً له. وأخـذتُ سكناً لي في أقرب بلدة لخيمته، أناسها طيبون، ويعرفون هذا الشيخ، حينما سألت عنه. أجابني أحدهم، وكان في زيارته، **فقال لي:**

- الشيخ همام رجل صالح، نعيش ببركته، لا يأتي إلينا أبداً، فقد انقطع في خيمته لا يغادرها إلا في أماكن لا نعرفها. فقلتُ له:

- هل يختفي كثيراً؟ فقال لي:

- نحـن لا نعرف عنه أكثر مـا تعرفه أنت. فقط نحسُّ بوجوده بيننا في

لحظات العُسرة.

مسجد القرية قريب من سكنــي، أخذتُ من سطحه ملاذاً آمناً، ومكاناً أتأمل فيه، وفيه أتعبد وأصلّي، ولا يفصلني عن السماء الصافية عائق، رغم أن الشيـخ لم يطردني من رحابة خيمته، وكنت أجلس معه أكثر ما أعيش في سكني. وكانت اللقاءات بيننا لا تسير على وتيرة واحدة، إنما تسير حسب ما يمنّ علي الشيخ بوقته الذي يقطعه لي.

.. فقط أسأله.. فيجيبني.

لم يعـد في يقينــي سوى التتلمـذ على يـدي الشيخ همّام، ومـا أعدّه من أسئلـة تفتح لي أبواب الطريـق الذي اخترته طواعيـة دون الحيدة عنه. لم أشعـر بهذه السعـادة من قبل وأنا أهيئ نفسي وروحـي لاستقبال هذا العلم الجديد الذي وجدته يتملكني ولا أستطيع الفكاك منه، رغم ما يحمله عقلي مـن علم دنيوي مادي مـن رياضيات وفيزياء وكونيـات، وما تحمله ذاكرتي مـن تكنولوجيا أحدثها الغرب لنا. لكنني أبَيْـتُ إلا أن أسير في هذا الطريق مكتفيـاً بمـا حصلـت عليه في دنيـاي التي سبقـت تلك اللحظـة الفارقة في حياتـي. وتذكرتُ مقولة نسيبـي الشيخ دسوقي (فلو وضعناك في جُبٍّ لوصل إليك هذا القطب)، فـازداد يقيني أن هذا الاختيار ليس بيدي، ولا أستطيع الفـكاك منــه، رغم تحذير الشيخ همّام لي، بل وطـرْدي من خيمته، حتى لا يمسسني جنون الطريق.

لم يكـن يعلـم صديقي "حسين عسفـان" نيتي في خوض هـذا الطريق، رغـم مـا كان يـدور بيننا من حـوارات حول هـذا الطريق ومخاطـره. فقد كان صديقـي لا يؤمـن إلا بلغة الأرقام حيث يعمـل محاسباً في أحد البنوك،

ودائمــاً ما كان يعترض على مــن يسلكون هذا الطريــق، ويسمّيه هروباً من الحيــاة، والتقوقع داخل الــذات، إلا حينما ألمّ به مرضٌ، فأمسكتُ برأسه، وقــرأتُ سورة الإخلاص ثـلاث، فهدأت رئتيه وانتظــم التنفس. حينها نظر إلى مبهوراً. وقال:

- ألهذا الحد وصلتَ إلى هذا الطريق؟ فقلتُ له:

- أي طريــق يا حاج.. لقد فعلــتُ بك كما كانت تفعل أمي وجدتي. فقال لي حينها:

- أنخاف منك.. أم عليك؟ قلتُ له:

- لم يعــد يحتوينــي الخوف، بعــد أن وضعتَ يدي في قلبــي، ونزعتُ منه النفس الأمارة.

الليــل يأخــذني أحياناً إلى حيــث تعيش زوجتــي وولــداي، فأحسُّ بهم، وألهــج بالدعاء لهم، وأرسل لهم إشــارات تعينهم على الحياة بدوني. وكنتُ قــد اخترت لولدي طريــق العلم التجريبي، فأبلغت الأكــبر برغبتي أن يكون مهندســاً مثلي، لكن في تخصص بنــاء المفاعل النووية، وهو تخصص نادر، لــن يجده إلا في هندســة الإسكندرية. أما الأصغر، فاخــترت له كلية العلوم ليدرس الفيزياء النظريــة. ربما لرغبة ما في نفسي، كــي أبعدهم عن هذا الطريق الذي سأسلكه، بعد أن اكتويت بالحزن على أختهم نهى.

جلستُ يوماً بليلته، مختلياً بنفسي وعقلي وقلبي، أقلّب الأسئلة، وأرتّبها، وأسوغهــا، حتــى لا أرهــق الشيخ، أو يملّ منّــي، أو يرى في عقلــي ما لا يراه صالحــاً لخوض هذا الطريــق. وقد غابت مــن أمام عيني كل صــور البشر

الذيـن آلفتهم في حياتي الأولى، ولم يبق منهـا سوى صورتين، وجه صديقي حسـين عسفان ونظرتـه التي حملـت الشفقة على من هـذا الطريق، ووجه نسيبـي الشيخ دسوقي، التي تبدو صورتـه متوهجة في عيني، لتذكّرني دوماً أننـي قد سلكت ذلـك الطريق الذي كان يبتغيه، بينما توارت صورة نهى عن عيني بعد أن سكنت القلب.

سألته.. فأجابني

-1-

هـو شيخـي.. وأنا مريـده.. هو عالمي.. وأنـا صورته الباهتـة.. هو قلب الشـيء.. وأنا طرف من أطرافه.. وهو العارف.. وأنـا بالتأكيد صبيّه الذي يريـد. حـين قابلته أول مرة في خلوته، أشاح بوجهـه عني. فمكثتُ غير بعيد أواري وجهـي أمـام الحائط المقابل له، حيث اللوحـة القديمة المكتوبة بخط الثلث الجلي (إلهي أنت محبوبي، ورضاك مطلوبي) . أما اليوم بعد أن عدتً إليـه طواعيـة وعازماً ألا أفارقـه، وجرى منه مثل ما جـرى في المرة الأولى، لكننـي أصررتُ على البقاء، فانتهرن بأدب العلمـاء، وأشار لي بإصبعه إلى البـاب. لكنني لم أخرج، ولسان حـالي يلهج بالذكر والدعاء بورِْد من أوراده المحببـة إليه.. ثـم علا صوتـي بالدعاء، ففهـم، وابتسم ابتسامـة الرضا، وأحسسـتُ بالقبول. وقـال لي بعد انتهائه من التأمـل، وأشار لي بالجلوس. فجلستُ متربعا أمامه. فنظر لي، ونظرتُ إليه مهللاً.. ثم قال لي:

- ماذا تريد أيها الفتى؟ فقلت له:

-جئتُ أسأل.. وأنتظرُ الإجابة. فقال لي:

- وهل ستتحمل؟ قلت له:

- سأراودُ نفسي على طاعتك. فقال:

- الطاعة لله وحده، وما أنا إلا عبدٌ من عبيده. فقلت له:

- أطيعك في الفعل مثلك، لأصل إلى طاعة الله. فقال لي:

- أنا لستُ الطريق. بل أنا في الطريق. فقلت له:

- أسيرُ خلفك.. ربما يتولاني الله برحمته ويرشدني. فقال لي:

- كيف عرفت مكاني، وقد بدّلته كثيراً؟ قلتُ بخشوع:

- لقد دلّني قلبي إليك. قال:

- فما بال العصا التي أهديتك إياها؟ قلت:

- لقد بدّلتّ حالي مذ لمستها، كلما تفوح بعطرها، أقترب من عالمك.

فقال:

- ليست العصا يا ولدي. بل روحك التي صفتّ، حين رأيت الأسد ولم تخف. فقلت له وفي عيني خوف:

- لكنني خفتُ يا سيدي، وناديتُ عليك. فقال:

- لم يكن خوف حينئذ، بل كان شك انتابك في يقيني.

وجّه الشيخ نظره إلى السماء. ثم قال:

- لله الأمر من قبل ومن بعد حتى يتمدنا الله بعفوه ورضائه.. اسأل يا بني.. ثم دخل في غيبوبة الصحو دون أن يدري، أو دون أن أدري أنا بأحواله. انتظرت كثيراً، حتى كأن الوقت قد توقّف على غيبته في غيبوبته. أخذتُ أتأمل خيمته ومحتوياتها، فلم أجد إلا زقّ الماء ومشنّة الخبز الفارغة، وقليل من زيت إضاءة في قنينة ضوء معلقة في إحدى زوايا الخيمة، ولها فتحتان متقابلتان بدون بابين، إحداهما ناحية شروق الشمس، والأخرى في ناحية الغروب، ولا أثر لأقدام بشر أو حيوانات على الرمال حول الخيمة، وتذكرتُ ما كان في اللقاء الأول حين سألت نفسي: كيف رأى الأسد؟ وكيف أوقفه،

وكيف لم يترك الأسد أثراً في الرمال، ثم كيف يعيش وليس لديه ما يقيم أَوَدْ.

تمددتُ بجواره، وجعلتُ عيني في اتجاه السماء، أتأملُ صفحتها المتناغمة، وأبحثُ عن أمل قريب يعيدني إلى دنياي التي تركتها، أو يصيبني وَجْدٌ كما أصاب هذا الشيخ، وأكون مثله في يوم من الأيام، فغفوتُ ساعات بجواره، لم أنتبه إلا ونور الفجر يبزغ في قبة السماء، فلم أجد الشيخ بجواري..

-2-

عاد بعد إفاقته من غيبوبة الصحو، فلما رآني سألني:

- أما زلت موجوداً، ألم يعتريك الخوف بعد؟ قلت له:

-جئتُ أسأل يا سيدي، وليس أجيب. كان ردّي جارحاً، لكنه ابتسم لي، **وقال:**

- لك أن تسأل يا بني ما شئت. فأنت ضيفي، وعلى المضيف أن يكرم ضيفه.

فخجلتُ من نفسي، ثم ترددتُ في سؤالي الأول، والذي سينبني عليه طريقي، فسألته:

- أريد أن أكون رفيقك في الطريق. فهل تقبلني؟ ابتسم، وقال:

- هذا ليس سؤالاً، بل رجاءً. يا بني.. كلٌّ له طريقه، وطريقي لا يسع سواي. فسألته:

- وجدتُ في روحك صفاءً حين نظرتُ إليك مرة في خلوتك. هل لك أن تدلني على الطريق. وبعد إلحاح مني. قال:

-أنت بهذا جئت لتقيم.. لا لتسأل. ليكن في الغد يا بني، إن شاء الحق تعالى. فسألته:

- وماذا في الغد؟ فقال:
- وهل انتهينا من الأمس واليوم.. حتى تسأل عن الغد؟ فقلت له:
- الأمس عشته، وأنا غير راض عنه، واليوم أنا معك في أمان. فماذا عن الغد؟ قال:
- لا يدرك المرء ماذا سيحدث فيه. سألته:
- ألا يمكن للعقل إدراك الغد؟ فقال:
- بل بالقلب يا بني. فسألته:
- وإذا غفل القلب عن إدراك الغد؟ قال:
- لابد من تطهير القلب من علائق الدنيا، فيصفو، وحين يصفو القلب ينشغل عن الدنيا، فإذا انشغل عن الدنيا تقطّعت عنه العلائق، وإذا انقطعت العلائق تطهّر. فسألته في لهفة:
- وكيف لي أن أطهّر القلب؟ فقال بعد إغفاءة أخرى:
- بالذِكْر، والمجاهدة، والطاعة، والعبادة. فسألته:
- وهل للمجاهدة طريق وأوراد؟ فقال متعجباً لسؤالي:
- وهل انتهيت من الذِكّر حتى تطلب المجاهدة؟ عليك بهم جميعاً، وأن تلزم الطريق. فسألته:
- وكيف أقوم عليهم جميعاً، وأنا في بداية الطريق الذي أجهله؟ قال:
- كفاك أسئلة. فقد شغلتَ قلبي بدنياك.. ثم غاب ثانية.

-3-

أتاني، وفي يده كتاب قـديم، يبدو على غلافه مسحة الزمن. ناولني إياه دون أن يتكلـم معي، كأنـه في حالة غضب، أو حالة دروشـة مما نظُنّها على أهل الطريق (تُوهة). فلما رأى عيني تنظر إليه بعتاب، قال لي:

– أنا لستُ درويشاً يا ولدي، ولستُ من أهل التوهة كما ظننتَ. فابتسمتُ خجلاً. ثم سألته في فضول:

– لمن هذا الكتاب؟ فقال لي:

– سؤالـك يحمل سؤالين: مـن مؤلف هذا الكتاب؟ أو هل هذا الكتاب لي لأقرأه؟ فأي السؤالين تريد؟ قلت له:

– كِلا السؤالين. فناوله لي، وقال:

– هـذا كتـاب (رسائل الجُنيد) للشيخ الإمام أبـي القاسم الجُنَيد إمام الطائفـة، وأول من كتب فيها. أتعرفه؟ فأجبتـه بالنفي، فقال: إنه لك الآن لتقرأه. فقلّبـت صفحاته، ووجدته عصيّ على الفهم إلا من بلغ درجة رفيعة من التصوف. فقلت له:

– هـذا كتاب عصـيّ الفهم إلا على مـن سلك الطريـق، وأنا ما زلت في بدايته، كيف أبدأ يا سيدي؟ قال لي:

– أن تبـدأ مـن حيـث انتهى الآخـرون. فليس عليك أن تكـون ظلاً لهم، لـك طريقك، ولهم طريقهم، تعلمتَ أكثر منهم في أمور الدنيا بأمور لم تمر عليهـم، لكنهـم اجتهدوا حتى يخرجوا ما لديهم لتكـون بدايات لمن لا بداية لهم. فلا تتعجل، واقرأ، ثم اسأل. فقلتُ:

- سألتك عن تطهير القلب فلم تجبني، وغضبت مني. هل صدر مني ما يغضبك يا سيدي؟ قال:

- لا سبيل للغضب في قلبي، فقد طهّرته من علائق الدنيا يا ولدي.

فسألته:

- أهذه أولى مراحل تطهير القلب؟ قال:

- يقول إمامنا الشِبْلي: «طرفة العين عند أهل الطريق من غير ذكر الله: كفر» فأين أنت من هذا. أولى تطهير القلب أن تقيم حدوداً بين النفس الأمّارة، وبين قلبك. سألته:

- وهل للنفس الأمّارة دليل لمعرفتها؟ قال:

- يقول تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). سألته:

- ولكن كيف لي أن أعلمَها في نفسي، وهي قابضة على روحي؟ قال:

- أن تجدَ وجْدَك في جَدِّك، وقولَك في فعلك، وصومَك في قلبك، وسجدَك بين قرة عينِك. أقول قولي هذا، ولا تسألني بعدها. ثم أدار وجهه عني، ومشي. فناديت عليه رجاءاك أن يعود، وليمنحني فقط مكان قدم. فقلتُ مخاطباً إياه.. أريد منك أن تمنحني مكان قدم في هذا البحر قبل أن تذهب. فأنا ما زلت غريقاً في كلامك، فاقذف لي القشة التي أتعلق بها لأنجو. فالتفتَ لي من بعيد وقال:

- الآية (١٠) من سورة الفتح. فأسمعتها له:

- إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ

فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

فقال لي:

- نعم.. نعم يا بني.. فبداية الطريق مبايعة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، واتباع منهجه دون نقصان أو غلو، وما من طريق إلا ويُبدأ به.. إنما يبايعون الله . . . .. تستطيع أن تضع قدميك في أول الطريق بعد أن تبايع الرسول الكريم. هذا ما قصدته حين قلت لك (أن تجدَ وجْدَك في جَدِّك).

فسألته:

- والكتاب يا سيدي.. لكنه قد ذهب عني، وتركني في صمتي وحيرتي.

-4-

انتظرته طويلاً، تأملتُ في أقواله الملغزة.. أن تجدَ وجْدَك في جَدّك.. حتى أهلّ على ممتطى عصاه التي تعلو رأسه بقليل، وكانت ابتسامته تعلو وجهه فتزيده نضارة وجلال. فابتسمتُ.. ثم هللّتُ عندما اقترب مني، ولمستُ عصاه، فأحدثتْ رعشة في كياني كأنها تحمل شحنة كهرباء عالية، فازدادت ابتسامته، وقال لي ضاحكاً:

- مالك والعصا.. قلت له:

- الفضول. قال:

- يقتلك الفضول، وتحييك الدهشة. فلم أكد أسمع هذه الجملة حتى أصابتني رعشة هزّت جسمي كله، وكانت كهرباء العصا لم تزل تترك أثراً في يدي. فوجّهتُ الحديث له.. وسألته:

– كيـف تعلم أنني في احتياج إليك؟ تظهـر لي كومضة، ثم تختفي مثلما جئت؟ كأن في عينيك شعاع يستشفّني، فقال:

– الوصْل يا ولدي.. الوصْل. سألته:

– لماذا إذن تغيب عني كلما أحتاجك؟ قال:

– كلُ عليمٌ بحاله. سألته:

– وهل حالك ليس كحالي؟ قال:

– الحال محال، إلا على الفانين فيه. سألته:

– هل حالي الحالي سيأخذني يوماً إلى لحظة الفناء فيه؟ قال:

– محال.. إلا إذا شفّتْ روحك من الوجْد والفقْد. فسألته:

– لم أنتـه بعـد من معرفة نفسي الأمـارة، فأمنعها عنـي، حتى تدخلني هذا المدخل الغريب الذي بين الوجْد والفقْد. فأخبرني إذن عن نفسي وكيف أهربُ منها؟ قال:

– ألم تتدبـر بعد تلك الأبيات الأربـع (٧، ٨، ٩، ١٠) من سورة الشمس. فخجلتُ من نفسي، وقلت له: لن تمضي تلك الليلة حتى أتدبرها كما علّمتني.

فقال:

– في طاعـة الله عبـادة، وفي طاعة الخلق استفادة. فـلا تجعل طاعتك للخلق مُقَدمة على طاعتك للخالق. سألته:

– وما هما الوجْد والفقْد هذان؟ قال:

– ألا تراني ثانية.. ثم اختفى عني، تاركني في حيرة من أمري.

-5-

لم أشــأ أن ألــحَّ عليــه بالظهور، وقد أخــبرني بأنه لن يأتــي ثانية إلا إذا عرفــتُ نفسي أولاً حتى أتحاشاها، وألا أطيعها، وأن تكون طاعتي للّه وحده. فأخــذتُ أتدبر معاني آيات سورة الشمس التــي وجّهني إليها الشيخ، فرأيت أن النفــس إمــا فاجرة، وإما تقية. لكنني لم أعــرف كيف أجعل نفسي تقية، وأن أتخلص من نفسي الفاجرة. لكنه فاجأني بظهوره أمامي مبتسماً. وقال لي:

- لقــد التزمــتَ في أدب الحوار، فلــم أشأ أن أقسو عليــك، وأنت لم تبلغ الطريــق بعد، فاجعل من سؤالــك طريقاً يوصلك إلى بدايــة الطريق، وأول الطريــق أن تعلم عــن نفسك ما ترشده إليك الآيات التــي تدبرتها بالأمس.

فسألته مهللاً بقدومه:

- لكنك تركتني بالأمس حائراً بين الوجد والفقد. فما هما؟ أعزّك اللّه.

قال:

- أعرفتَ نفسك أولاً؟ قلت:

- أحاول يا سيدي. وما زالت نفسي عالقة بين أهداب روحي، وبين الحين والحــين أفاجئها بصوم طويل، وصمت أطول، فتلتــاع من الحرمان بملذّات الدنيا، فترقُّ أحياناً، وتغضبُ أحياناً أخرى، وأنا في الحالين أقف على أعتاب الجنون. لكنني يا سيدي أقف حائراً بين كلماتك، وأول الغيث الوجْدُ. فما هو:

- الوجْــد يا ولــدي أن تغوص في لجــة الصمتِ.. أن تتقلــب بين الأحوال والمرامــات. فتشتــاق روحــك إلى ملكات الحبيــب. الوجْدُ غيــب في حضور.

سألته مندهشاً من جملته الشديدة التكثيف:

- وهل للوجْدِ أحوال يا سيدي؟ قال:

- الوجْدُ له أحوال.. لو دخلتَ فيها لفقدّتَ قلبك. فسألته باستغراب شديد:

- وماذا لو فقدتُ قلبي حينئذ؟ قال:

- لو فقدتَ قلبك وجدتَ ربك. سألته:

- وهل لي من الوصول؟ قال:

- هذا المقام لا يبلغه سوى العارفون. سألته:

- ومن هم العارفون؟ قال:

- العارفون هم الواصلون، تتباهى بهم الملائكة في الملأ الأعلى. فضحكتُ من قولته، وسألته:

- ولكن هذه مقولة (ثوبان الزاهد) في فيلم رابعة.. ابتسم لي وقال:

- مـا زالت فيك بعض مـن عفن الدنيا.. أنظـر إلى البعيد يا ولدي. كل العارفـين تأخذ مـن فيض الحق. ولم ينتظرني أسألـه.. فقد اختفى فجأة، كما جاء فجأة..

-6-

وجدتــه يجلس خلف أحد أعمدة المسجد، يتلو ويشرح بعض آيات القرآن الكــريم لبعض مريديه، وكانت كلماته تنساب علــى الجالسين أمامه بفيض من الأنوار تغسل قلوبهم، وتفتح عقولهم على حلاوة القرآن ومعانيه. جلستُ بينهــم أرقبه، وأتأمل خلجات قلبه وهي تخرج على وجهه نوراً لا يراه إلا من شاهده في غفوتاه وغياباته. وعندما انتهى، انصرف الجالسون إلا أنا. فقال لي:

– لماذا لم تنصرف معهم يا ولدي. هذا ليس وقتك. وأنا على سفر دائم. فقلتُ:

– وقتي يقف بين طرفي وقتك. فقال:

– بــل وقتــك مقطوع بحالــك، فالزم والتــزم، وتأدّب وتدبّــر، ولا تتعجّل فتندم. فقلت:

– شوقي إليــك يرفعني درجة عندك، وشوقي إلى المعرفة تدفعني إليك، وما عهدتُه فيك ألا ترد السائل. فابتسم وقال:

– اسأل يا بني، فإن قدرك معلّق بإرادتك. فسألته متلهفاً:

– سألتــك عــن الوجــد والفقد، فأجبتنــي عن الوجــد، ولم تخبرني عن الفقد. فقل لي ما هو هذا الفقد الذي يلي الوجد.. أعزك الله؟ قال:

– الوجْدُ والفقْدُ ضدان معاً، ومتلازمان معاً، فإذا راح الوجْدُ جاء الفقْدُ، وإذا آب الوجْدُ غاب الفقْدُ. وكلٌ خُلقَ لما تيسر له. فسألته:

– أراك زدتنــي غموضاً يا سيدي، ولم أفهم، زدني بفضلك، زادك الحق من فضله؟ قال:

- الفقد ألا ترى ظلاً لك ولا رسوم. فسألته وأنا أكثر استغراباً:

- أفي العتمة إذن؟ قال:

- بل في نور الحق، وعين اليقين. سألته:

- هل لي في استزادة؟ قال:

- قال تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى). فقلتُ له:

- صدق الله العظيم. لكنني لستُ نبياً حتى أبلغ هذا المقام يا سيدي.. بالله عليك كن رحيماً بي، هل سأصلُ إليه ذات يوم. أم هذا محض أحلام؟

قال:

- هذا مقام لا يصله إلا من كانت كل جوارحه لا تلهج إلا بذكر الله.. هذا مقام الأنبياء يا ولدي.. فلا تبتئس. فقلت له وأنا في أشد حالات الإجهاد من عمق إجاباته:

- كفياني أسئلة اليوم. فقد نالني منك ما نالني.. سامحك الله.

-7-

أتاني باشّاً، رقيقاً، كنسمة صيف في نهار يوم قائظ، وأشار إلى بالجلوس متربعا. فضحكتُ، وسألته:

- لماذا؟ فأجابني:

- رأيتك تتلقى الإشارات، وأنت لا تدري، وقد وجدتُ في عينيك الاندهاش، والرغبة في سلوك الطريق. والإشارات هي أولى دلالات القبول. والقبول أن تكون في معية الخالق في صلاتك وذِكرك وعبادتك.. لقد أرهقتك بالأمس، وما كان يجب الخوض في عالم الفقد، لأنه ليس عالمك يا بني. لكن أسئلتك.. ثم صمتَ. فسألته:

- هل أسئلتي تنم عن جهلي؟ فأجاب:

- الجهل هو عدم معرفتك بالحق حق اليقين، وهي أولى دلالات المعرفة، وعين الحقيقة. سألته:

- وهل الجهل نعمة، أم نقمة؟ قال:

- الجهل نعمة إذا سعيتَ إلى معرفة الحق بحق، ونقمة إذا نفيتَ عنه الصفات والرموز. سألته:

- وكيف يكون الجهل عين الحقيقة؟ ضحك عالياً من سؤالي، حتى ظننتُ أنه شخص آخر غير الذي أعرفه. فسألته مستفسراً عن ضحكه الذي زادني غموضاً:

- لماذا ضحكت هكذا يا سيدي، حتى ظننت أنك لست أنت؟ قال متعجباً:

- أيهـا الإنســان الفاني أمامك الكثير لتتعلمه، فـلا تتعجل قدرك. عدم معرفتك ليس جهلاً، بل انشغالك عنه بالدنيا هو عين الجهل. سألته:

- وماذا عـن انشغالي بالدنيا؟ أليست الدنيا خلقها الله لنا لننعم فيها، لا أن نهجرهـا؟ قـال كلاماً غير مفهوم، كأنه يحدّث شخصاً آخراً. ثم وجّه كلامه لي:

- الدنيـا هــي حياتنــا التي نحياهــا، ولا سبيل للهروب منهــا إلا بالموت، فنبحــث عن السعادة فيها، عن البنــين، عن المال، عن اللذة، عن القوة، عن السلطــة.. ثــم ماذا بعــد.. ننتظر الموت. المــوتُ يا بني لا يفــرّق بين السعيد والتعيس. أما السالكون فدنياهم غير دنياكم، لقد ارتضوا بالطريق وبآدابه، غير عابئين بتلك الدنيا التي لا تورّث إلا الموت مهما طال الأمد، فكلنا فانون. فمــن تعجّــل آخرته، نال شفاعته، ومن طال وجْــده قصر فقده، حتى يلاقي ربــه، وكل مرامه أن تكون نفسه هنيئة. لم أجد بدًّا من التسليم بعدم فهمي، بعد أن اختفى عني فجأة كما جاء فجأة..

-8-

لم يكـن خاطراً إذن حينما لمحتُ طيفه يمر في خيالي، وقد كانت أسئلتي له بالأمس تنم عن غبائي في أحوال أهل الطريق. فناشدته ألا يختفي عني..

فسألته:

- لقد ذهبتُ مرة إلى خلوتك، فلم أجدك، لكنني وجدتُ مكانك ما يزال دافئاً، فأين كنت إذن؟ فقال:

- كنتُ بين بين. سألته:

- ماذا تعني بـ بين بين يا سيدي؟ فقال

- كنتُ بين الخلوة والجلوة، أو بين الجلوة والخلوة.

فازدادت حيرتي بين البينين.. فسألته:

- لقـد أغلقـت عني طريـق العقل يا سيـدي، فكلماتك كثيفـة، وملغزة، وساحرة، تبهر العقل، لكن لا تدخل فيه، تشرق على القلب، لكنها تغرب عنه كلمـا تدخّل العقل ليفهم، ولم أعد أفهم، بالأمس كانت كلمتا الوجد والفقد، واليوم الخلـوة والجلوة، وكلما أدفع عقلي على تدبـر كلماتك، يتوقف العقل علـى بـاب الكلمة، فأراود قلبي عن معناها، فأخـرجُ منه كما دخلتُ. هل لي أن أسألك:

- ماذا تعني الخلوة والجلوة.؟ قال:

- لـن تفهم هذا العلم بعقلك، فالعقل قاصر عن إدراك ماهية الكلمات، فهنـاك فارق كبير بـين الدال والمدلول، أو بين اللفظـة والمعنى، ولكلِّ طائفة لغة، ولكلِّ لغة قواعد، ولكلِّ قاعدة طريقة في التأويل، يجمعها دوام القلب في محبة الخالق. فسألته:

- لكني أسأل عن معنى الخلوة، وأهميتها في سلوك الطريق؟ قال:

- الخلـوة في حديث أبي هريرة في السبعة الذين يظلهم الله (رجل ذكر الله خالياً ففاضـت عيناه)، والجلوة: يقول الله تعالى في محكم آياته (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ). فسألته:

- وكيف تجلّى رب العزة للجبل؟ قال:

- قلتُ لك أن العقل قاصر عن إدراك المعنى. فسألته:

- وهل يظل العقل قاصراً دوماً؟

- ينفتح العقل كلما توهّج القلب، فيُدرك المعنى عندما ينشغل القلب.

سألته:

- وهل للمعنى طريق؟ ابتسم.. وأشار إلى السماء، ثم مال إلي وقال:

- الزم هذا (وأشار إلى قلبي)، والزم هذا (وأشار إلى سجادة الصلاة). هممتُ بالسؤال.. فأشار إلى بالصمت. رفع عصاه إلى السماء فاختفى مثلما جاء.

-9-

لم يعـد يدهشني في حضـوره فجأة واختفائه فجـأة، ربما لرغبة منه في إفسـاح الطريق كي أسير فيه وحدي يوماً ما، فلـم ألازمه سوى شذرات من وقتـه المنقطع لي، ولم يلزمني بموعد في لقاء، لقد جعلني أشعر أنه سيأتيني حتمـاً كلما أحتاجه، حينما يشتد بـي الوجْد، أو يعصي على الفهم والإدراك في ملمّـات الطريق. وما أن أبديت رغبة في لقـاء لأسمع منه من فيض علمه عمـا يقوله عن الخلوة والجلـوة، حتى لاح لي من بعيد، يضع فوق رأسه شالاً أبيضـاً على غـير عادته، لكن عصـاه تسبقه دوماً، وقد لاحظـتُ في مشيته وهناً. فبادرته بقولي:

- لو تخبرني بمكان لأتيت أنا إليك، ولوفرة عليك عناء الطريق. فقال لي:

- لا تحرمنــي يا بني من المكابدة، فإن لذّتي في مكابدتي، ومبلغ سروري حينما أراك تتقدم في الطريق. فسألته:

لقـد أخذْتني بالأمـس بعيداً عن سـؤالي عن الخلوة والجلـوة. فما هما إذن؟ قال:

- الخلـوة من الخلاء.. والخلاء ابتـلاء. والجلوة من الجلاء.. والجلاء صفـاء. وتعني الجلـوة: خروج العبد من الخلـوة بالنعـوت الإلهية، كما هي إشـراق قلوب المريديـن بنور الحق. وبـين الخلوة والجلـوة مجاهدات، وفي المجاهدات إخفاقات وإشراقات. سألته:

- وهل في المجاهدات إخفاقات؟ قال:

- كلما تشعر أنك تقترب من الحقيقة، ترى نفسك أنك تبتعد أكثر.

فسألته:

- وكيف أشعر بقربي من الحقيقة إذن؟ قال:

- بالجذبة. فسألته:

- وما الجذبة يا سيدي؟ قال:

- أن تجـد نفسك مجذوباً إليـه دون إدراك منـك، فتتجلى عليك لوامع وبوارق ومشاهدات، حتى تتخيل نفسك أنك لست أنت. فسألته:

- وهل هذه التجليات قبل الموت أم بعده؟ قال:

- أي موت تقصد يا ولدي؟ إذا صفتِ روحك تخطّاك الموت. فسألته:

- وهل لهذا الموت علامات؟ قال:

- إنه الطريق إلى السماء يا ولدي.. إنه الطريق.. لقد قلّبتَ على شقوتي وحزني سامحك الله... وما رأيتُ أحداً يذرف دموعاً تسيل من عينيه مثله ...

-10-

كانت الخلوة التي صنعتها لنفسي ليست بمعزل عن العالم الخارجي، فأحيانا تأتيني أصوات تخرجني عن صمتي، لكنها محببة لي لقربها من الناس، حتى إذا ما غشيني الموتُ، وجدتُ من يسعفني، أو يقبُرني.. فقد كان هاجس الموت يسيطر على كل كياني قبل أن أبلغ الطريق. والطريق مازال بعيداً عني، أتعجّل التجليات التي ترد على العارفين دونما أمل، الأمل يأخذني إلى منطقة الرغبة التي يخشاها العارف، فالرغبة تؤجل الجذبة، وإذا انقطع الأمل في الجذبة، بقي العارف في مقام الزهد، وربما خرج منه أيضاً، ليعود إلى العلائق والرسوم فينتهي قبل أن يبدأ . . .

فأتاني الشيخ باسماً. وقال لي:

- لماذا تخاف من الموت، وأنت ما زلت فتى صحيح البُنية. فسألته منبهراً من فراسته:

- وكيف عرفتَ ما يدور بخلدي؟ قال مبتسماً:

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) فالتزمت الصمت قليلاً خجلاً، ثم واصلتُ الحوار معه الأسئلة، وسألته:

- كيف لي أن أعبر الطريق إلى السماء دون الموت؟ فقال:

- أن تعبد الله حقاً وصدقا، دون خوف من عقابٍ، أو انتظارٍ لثواب.

فسألته:

- وكيف أفوز بالجذبة؟ قال:

- لا تتعجّـل الجذبة، فإنها لن تأتيـك بإرادتك، حتى لو كنت من الفانين في الله. سألته:

- وكيف لي أن أسلك هذا الطريق؟ قال:

- أن تعبد الله دون انتظار لرؤيته.. فإنه يراك. سألته:

- هل للعبادة حدود؟

- الحد.. يفصل بينك وبين الحق، فلا تجعل لعبادتك حدود. سألته:

- فهل للعبادة أوقات؟

- الوقت هو ما يرد عليك من نِعَمٍ دون اختيار منك. فسألته:

- وكيف أحسّ بها، وأنا لم أزل في بداية الطريق؟

- الصبر يا بني.. الصبر. فسألته وأنا لا أطيق صبراً:

- هل لي بإشارة منك؟ قال:

- دعني وشأني.. فأنت لن تستطيع معي صبرا.

-11-

تغيّـبَ عني شهراً كاملاً. ذهبـتُ إليه في خلوته فلم أجد الخلوة، ناشدته في منامـي ربما يأتيني طيفاً، لقد كنتُ معـه في اللقاء الأخير فجاً، وعجولاً، وجهـولاً. فعدتُ إلى وحدتي أقيم الفرض، وأحيي الليل، وأتدبر آيات القرآن الكريم، وأنتظر..

فأتـاني علـى غير موعـد، يتحسس بعصاتـه طريقي، وحينمـا واجهني عاتبنـي بشدة، حتى لكأنني قد ظننتُ أنني قـد خرجتُ عن الطريق بجهلي وفجاجتي. بادرني بقوله لي:

– هل ما زلت تروم إلى الجذبة؟ فقلت له على الفور:

– لقـد وعيتُ الدرس، وهذّبتُ النفس على الطاعة، وأكثرتُ من العبادة، وصرتُ أكثر شوقاً، وأقل شكوى، وستراني على غير ما ظننته عني.. فقال لي:

– لم أظن عنك إلا كل خير يا ولدي، ووجدتُ لهفتك للعلم عندما أتيتني في خلوتي. فقلتُ له:

– لكنني لم أجدك أو أجد الخلوة. فكيف أجدك كلما أحتاجك؟ قال:

– ستجدني في خلوتي وإن لم ترني. فسألته:

– وكيف أعرف بوجودك ولا أراك؟ فصمت عني ولم يجبني. فعدتُ أسأله:

– فما الخلوة إذن؟ أهي مكان.. أم زمان.. أم سلوك؟ فقال:

– في الخلوة ينقطع الزمان والمكان، ويتوحد السلوك في المواجد. فسألته:

– وهل للخلوة مكان تختلي فيه؟ فأجابني:

- الخلـوة رحـم، فيه الصون والستر والخباء. الخلـوة كون منفصل عن كـون، تولـد فيها المشاهـدات، ويرعاها صوم وصلاة وتهجـد. فمن جَدّ فيه وَجَد.. ومن تسامر فيها وحيداً عاش ليلته لا ينتظر ليلة أخرى. فسألته:

- وهل تنجو من الناس فيها؟ ابتسم وقال:

- نجوتُ منهم.. إلا أنت. فسألته، وأنا خجل من نفسي:

- وماذا عني ـ أعزك الله؟ قال:

- أراك مرآة لحالي، إلا من بعض العلائق. سألته:

- وما العلائق؟ قال:

- ما علق فيك من بقية حياة. فسألته:

- وهل للحياة معنى بدون علائق؟ قال:

- إذا انشغلت بالعادات، غابت عنك الواردات. سألته:

- وما هي الواردات؟ قال:

- أن يردَ إليك في قلبك ما لم تشاهده بعينيك. فسألته:

- نور مثلاً؟ قال:

أنـوار تجليـه الأرج   لمعـت فارمقهـا وابتهـج

وأعـدّ القلـب لرؤيته   بـدوام الذكـر وأنـت شَجِ

الكون حجاب أجمُعُه   فاطرحه تصل أعلى الدرجِ.

(الأبيات من قصيدة الأنوار للعارف بالله سيدي سلامة العازمي)

فقلتُ له صائحاً:

- اللّه.. اللّه.. يا مولانا.

ثم أغشي علي، فلم أحسّ بوجوده

-12-

بهرتني تلك الأبيات الثلاث التي أنشدها لي شيخي وخصوصاً حين قال: «الكون حجاب أجمُعُه، فاطرحه تصل أعلى الدرج». وحين أتاني لم يكن على لساني إلا هذا البيت.. فسألته:

- الكـون حجـاب أجمُعُـهُ.. كل هذا الكـون حجاب، فكيـف أطرحه من حياتي وأنا فيه ومنه؟ قال:

-جميـع موجودات الكون حجُبٌ للعبـد، إذا انشغل بها أبعدته عن طريق الحق تعالى. فسألته:

- يقول العلماء أن هذا الكون خواء. فهل هو خواء حقاً؟ قال:

- مـن قـال ذلك؟ وهذا الكـون يسبّح بحمده تعالى. فقلـت له ما أعرفه عن الكون:

- يقـول علمـاء الكوزمولوجيا أن ٩٩ ٪ من الكون خـواء، وأن ما نشاهده من الكون لا يتعدى ٢٪ فقط من الكون المرئي الذي يشمل ١٪ فقط من حجم الكون كله . . . قال:

- الكـون نقطة الكلمة من أزليته.. الكون ملـيء بمحبين. ومن قال ذلك من علماء لم يدركـوا حقيقة هذا الكون كما خلقه الله تعالى، فإنهم رصدوا مـا رأوه، وحسبـوا برياضياتهم بمـا يأتيهم من هذا الكـون المرئي من ضوء وموجـات. لكننا نحن نراه محدوداً بمـا يكفي لطرحه من حياتنا لنصل إلى أعلى درجات الترقي. فسألته:

- وهل لهذا الكون حدود؟ قال:

- ليس لهذا الكون حدود إلا ما نشاهده. فسألته:

- وهل لي أن أشاهد ما لا أراه منه؟ قال:

- الشهود أن ترى الحق بعين البصيرة، لا أن ترى الكون بعين اليقين. فسألته:

- وهل رؤية الكون بعين اليقين خطوة لرؤية الحق بعين البصيرة؟ قال:

- قال الإمام الشعراوي: يا ولدي.. دع ما لا يريدك إلى من يريدك.

فسألته:

- وهل تريدني حقاً يا سيدي؟ قال:

- ما زلتَ قاصراً عن إدراك الحقيقة.. فأنا فانٍ مثلك يا ولدي. سألته:

- وهل للحقيقة طريق؟ ابتسم ابتسامة أضاءت وجهه. ثم قال:

- يا ولدي.. يا ولدي.. متى ستتعلم؟ وما زالت أنامل أصابعه فوق رأسي تهدهدين بعد رحيله. ثم وجدتُ بعد رحيله كتاباً قديماً، لم أعلم به من قبل، لكني أعلم صاحبه الشيخ سلامة العازمي. فقد كان شيخاً لأبي، وقد حدثني عنه، وعن علمه وكراماته. وكان اسم الكتاب (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان). فأخذت أقلب بين دفتيه، وأسأل نفسي.. ماذا يريد مني شيخي من هذا الكتاب القديم..

-13-

أتاني في ميعاده، بعد أن ظننت أنه قد غضب مني، لكنني رأيته مبتسماً، وبادرني بسؤال:

- أراك اليوم كالأمس، مجهداً، زائغ البصر. فلمَ استدعيتني إذن؟ فقلتُ له مهللاً:

- لقد شغلتني عن محدودية الكون يا سيدي. وما زلتُ أفكّر كيف يكون هذا الكون على اتساعه المستمر محدود؟ قال:

- ما شغلك بالأمس يجري اليوم على وتيرة واحدة من الأمس، وما الأمس واليوم والغد إلا تجليات رب العزة على هذا الكون. فسألته:

- وهل اليوم كالأمس يا سيدي؟ قال:

- كل الأيام سواء.. (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي). سألته:

- وماذا عن الغد؟ قال:

- وهل يعلم الإنسان متى غده يا ولدي. (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فالشمس تجري لمستقر لها، لكن إلى متى؟ ستظل تسبح في فضائها حتى إذا أذنَ المولى للسماء فتُحَقُ (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ). الغد لا يعلمه إلا الله تعالى. سألته:

- وماذا سيكون الكون في الغد؟ قال:

- كالأمس. فسألته:

- وهل الكون ثابت لا تغيير فيه؟ قال:

- لماذا تشغل نفسك بهذا الكون يا ولدي.. أنت جزء منه. وما يجري عليك يجري عليه من تغيير. الكون كائن متغير لكننا لا نلاحظ التغيير فيه لاتساعه عن مداركنا. سألته:

- وهل مداركنا قاصرة عن اللحاق به؟ قال:

- يا ولدي.. لابد من الخروج منه حتى تُدركَ التغيير فيه. سألته بانبهار:

- من علّمك هذا العلم؟ قال:

- بالتدبر في آياته.. ألم تقرأ في كتابه المبين: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). سألته:

- وهل القرآن الكريم ينبئنا بنهاية الخلق كما أخبرنا ببدايته؟ قال:

- لقد أجهدتني يا ولدي.. عليك بقراءة تلك الآيات. وتركني غارقاً في كلماته.

-14-

لقد أثار فضولي هذا الشيخ بعلمه، فعدتُ إلى تلك الآيات الثلاث في (يس) و(الانشقاق) التي أشار علي بها بالأمس، وأغمضت عيني كي يأتيني.. فطال بي الجلوس وحيداً.. أتدبر.. وأنتظر، حتى أعياني التفكير فغفوتُ.. فما هي إلا لحظات ووجدتُ من يهزني في منامي برفق دون أن يوقظني. وسألني:

- أووا وجدتَ ضالتك في آيات كتاب الله الثلاث؟ فهمستُ له:

- قرأتُ.. نعم.. وتدبرتُ.. نعم. لكنني ما زلتُ تائهاً، فخذ بيدي. فإن الحِمل ثقيل، والقرآن الكريم حمّالَ أوجه، والكشف لن يأتي إلا بين يديك. فقل لي - غفر الله لك - متى أخرجُ من تلك البداية بمعرفته تعالى؟ فإنني كلما أوغلتُ في علمه تعالى ازددتُ جهلاً. فقهقه عالياً حتى رأيت نواجذه البيضاء تضيء وجهه.. ثم قال:

- هل قرأتَ كتاب (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان)

قلت له:

- الذي تركته لي دون أن تخبرني به، قرأت فيه، حتى وقفت عند صفحة ٢٤ ولم أفهم، وقرأت: روى مسلم في صحيحه عن جبير بن مُطعِم أنه قدم المدينة وهو مشرك، فإذا رسول الله يقرأ في صلاة المغرب لسورة الطور. قال فأصغيت إلى قراءته حتى بلغ قوله تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) قال رضي الله عنه: كاد قلبي يطير، وأدخل الله علي الإسلام.

فـإن الآية قـد جعلت حدوث الحادثـات بلا موجد يكون واجـب الموجود من الأباطيـل التي بطلانهـا في حيز الظاهر المكشوف الـذي ينكر على من قال بـه إنكاراً. والمعنى واضح (أن من لا يملك وجـود نفسه لا يستطيع أن يعطي الوجود لسواه). فقلتُ له:

- الآن يـا سيـدي قد فهمتُ أن كيف كاد قلـب الصحابي الجليل " جبير بن مُطعِم" أن يطير، بعد أن أدرك أن وجوده ليس بيده، بل بيد خالق أعظم. فقال لي:

- والآن يا ولدي هل لَمَستْ قدماك بداية الطريق.. إذا كان.. قم واستغفر اللّه العظيم، ثم توضأ، وصلّي ركعتين.. وانتظر. فسألته:

- وإذا لم يكن؟ فقال معقباً:

- حتى إذا لم يكن، عليك أن تنتظر. سألته:

- أنتظر ماذا؟

لكنه قد اختفى وتركني حائراً.

-15-

لقـد انتصف الليل، ومـا زالت قدماي تقفان على عتبة الباب، ولم يظهر الشيخ بعد، ولم أجد في مسألتي يقيناً يُخرجُني من العتمة إلى بداية الطريق، وقد استبد بي القلق من طول الانتظار. فلم أشعر إلا ويده فوق رأسي.. وقال لي هاتفاً:

– أراك قد مللتَ الوقوف.. غيرك وقف عمره كله على الباب ولم يدخل. أراك متعجلاً قليلاً.. الانتظار اختبار. فسألته في لهفة:

– الـوارد شحيـح، والقلـب ضعيف، والعمـر قصير، وأخـاف أن يُقضى نحبي ولا أدخل. فمتى إذن؟ قال:

– اليأسـ يأكل الأمل، ويأتي بالعلل، فكيف ترتجي، وأنت ما زلت مبتدي، ولم يصبك بعد الابتلاء. فسألته مبدئا دهشتي من هذا الابتلاء:

– وهل الدخول في رحابه ابتلاء؟ قال:

– الابتلاء دواء لمن طرق باب السماء. فسألته:

– وكيف يكون في حبه تعالى ابتلاء؟ قال:

– أن يكـون الصمت ديدنك، والصبر منهجك، والذكر طريقك، وسِرّك لا يعلمـه غير ربـك. فتنجو من مغبـة الابتـلاء، وتأتيك البشـارات دون أن تطلبها.. فسألته:

– أعـزك الله ونفعنـا بعلمـك. كيـف لي أن أتلقـى البشـارات، وأتحمل المشاهـدات، وأغوص في لُجّة الصمت بدون خـوف؟ فما أن أتممت سؤالي، حتى توارى في غبشة الليل عني، وهو يردد:

- مـا زال حالك في منطقـة الداء، ودواؤك بيدك، ليس بيدي ولا بيدي غـيري، ولم تتخلص بعد من نفسك الأمّارة، فـلا تلم إلا نفسك، ولا تغضب إلا منك، ألم تقرأ بعد في بردة الإمام البوصيري قوله:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة   مني إليك ولو أنصفت لم تلمِ
عدتـك حالـي لا سـرّي بمستتر   عـن الوشاة ولا دائي بمنسمِ

تركنـي في مغبـة الوجّد، جسد بلا روح، بعد أن أمـاط اللثام عن نفسي، وذكّرني بما هو فيّ، وجعلني أعيد سلوك الطريق من أوله. يا لشقاء المحبين، حين يرون أرواحهم الهائمة في سماء بلا نجوم..

-16-

تركني بالأمس حائراً بين اليأس والرجاء، ولم يشفِ غليلي، بل وأخرجني من عتبة باب المستجيرين إلى ما كنتُ عليه من قبل، فجاء إلي، ربما معاتباً، ولم تكن عودته مفاجئة لي، فقد أحسستُ برائحته الطيبة تغمرني. ربت على كتفي، وهمس في أذني:

- يا لائمي في الهوى العذري معذرة.. فقلت له :

- كيف تعتذر لمن لا يدانيك قامة، أو علماً؟ فقال لي:

- الاعتذار واجب، كما القسوة أحياناً واجبة، وفي الاعتذار راحة للقلب، وصمت للضمير، وشفاء للداء، وما قسوتُ عليك إلا لأعيدك للطريق، فلا تبتئس مني إذن، ولا تحزن على ما فاتك. فكلُّ ما فاتك ما هو إلا تدريب للقلب، وتسرية للروح، وتهيئة للدخول. فقلت له:

- وما علاقة هذا ببردة البوصيري يا سيدي إذن؟ قال لي:

- البردة من منابع الوصْل، يتغنى بها المداحون، فيهيمون مع روادهم، ويحفظها المريدون تيمناً بعطية الرسول الكريم لمُحبّه البوصيري.. فمن أحب الرسول الكريم أعطاه من فيض الرحمن بركة.. فقلت له:

- آه ياسيدي لقد عشتُ بعضاً من طفولتي في حضن البوصيري بصوت الشيخ عبد العظيم النوواي. وكان شيوخنا يتغنون بها في جنازات الأكابر من القوم، وقد أخذتْ البردة مكانة إجلال وتقدير عند المصريين بين كتابي الشيخين البخاري ومسلم. فقال لي:

- عشتها نعم.. لكنك لم تدرك معناها.. إنها إحدى البشارات للإمام البوصيري. أحبها العامة لبساطتها وغنائيتها (من بحر البسيط) وقيل: من يقرأها يرى الرسول في المنام، ومن يرى الرسول في منامه فقد رآه في الحقيقة.. هذا ما يردده العامة عنها يا ولدي، لكنها في الحقيقة وسيلة للتقرب إلى الرسول الكريم ابتدعها البوصيري ليتقرب بها إلى الحبيب محمد، ولا تنسى أن الإمام البوصيري (١٢١٥ - ١٢٩٥م) مصري المولد أمازيغي الأصل. وعاش في أخريات الدولة الأيوبية وبدايات دولة المماليك البحرية، ولم يكن في ذلك العصر سوى الفقيه الأكبر العز بن عبد السلام.. فاستوقفته بإشارة مني على غير رغبته. وقلتُ له:

- وهل البوصيري من أهل الطريق؟ ابتسم لي بابتسامة ذات مغذى لم أفهم معناها، ثم قال لي:

- من مسّه طيف النبي محمد - صلى الله علي وسلم - التزم. ومن التزم اغتنم، ومن اغتنم فاز بالطريق. سألته:

- أأعود وأحفظها؟ قال:

- هذا وليُ له طريقه. ولك طريقك. سألته:

- وكيف أختار طريقي، وأنا لا أعرف ما هو الطريق؟ قال:

- الطريق هو السلوك. فسألته:

- وما طريقي إذن؟ قال:

- ألا تتجاوز محبتك لله ولرسوله عما سواهما. سألته:

- وهل تتجاوز محبتي لله ولرسوله عما سواهما يوماً؟ قال:

- تنبتُ المحبة في القلب الخالي من شوائب الدنيا.

وعندما هممتُ بسؤاله عن الولي.. وضع يده على فمي، وقال:

- كخفاياك أسئلة يا ولدي.. فأنت لم تزل بكراً في محبتك.. ثم اختفى.

-17-

انخرطتُ في صلاة الصبح جماعة في المسجد، وبعد الصلاة انزويت في زاوية، بعيداً عن أعين المصلين، لأقرأ وِرْدِي من القرآن الكريم، فوجدته يجلس أمامي متربعا، وعيناه مصوبتان نحوي، وقال لي:

- اقرأ يا ولدي الآيات (٦٢ - ٦٣ - ٦٤) من سورة (يونس) فقرأت (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). فقلتُ له:

- وما معناها يا سيدي؟ قال لي شارحاً:

- أولياء الله الذين قال عنهم النبي: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى. قال: الذين إذا رءوا، ذُكِر الله عز وجل. فسألته:

- كيف يُذكرُ الله عز وجل إذا رأينا أولياء الله؟ فقال لي:

- الحمد لله الذي جعل بيننا قوماً يحبون الله ويحبهم. فسألته:

- وكيف نفرّق بينهم وبين علماء الأمة الإسلامية؟ قال لي:

- كلٌّ له علمه، وطريقته، وسلوكه، ومريدوه. فقلتُ له:

- لكنني لا أرى إلا علماء الأزهر يأتون إلينا في كل مناسبة دينية، فيلقون علينا دروسهم، بعضنا يفهم. وبعضنا يهلل، وبعضنا يجادل بما لا يعلم. فأين أجد أولياء الله. أم أن الدنيا بملذاتها قد أخفقت في ظهور أي منهم في هذا العالم التي تغلّبتْ فيه المادة على الروح. ابتسم الشيخ، وربت على كتفي، وقال لي:

- صدقت يا بني. لكنك إذا بحثتَ عنهم بصدق ستجدهم، فسيظل الولي في الأرض حتى تقوم الساعة، لكن احذر من الزيف، فالولي ليس له صورة، فقد أزيلت عنه الرسوم، فلا تنخدع بما تراه من ورع زائف، وكرامات مصطنعة، ومريدين جاهلين.. فتّش عمن يتمسك بالقرآن والسنة قولاً وعملاً. فسألته:

- لكنك لم تخبرني عن الفرق بينهم؟

- هذا ما سأخبرك به غداً إن شاء الله تعالى.

-18-

لم ينتظر صلاة العشاء، فأتاني عصراً، وفي يده عصا غليظة، لم أرها من قبل في يده، أو في خيمته. فسألته:

– لماذا أتيت بعصا جديدة اليوم؟ هل أخطأتُ؟ أم أنني ما زلت غبياً؟ فضحك ضحكة أضاءت وجهه. وقال لي:

– وهل لي أن أضربك ــ سامحك الله بهذا الظن فيّ؟ إنها عصا أتوكأ عليها.. ثم ابتسم وعقّب: ليست عصا موسى، حتى لا يأخذك عقلك القاصر عن فهم كينونة الطريق، كما أنك لستَ غبياً كما تظن على نفسك - سامحني الله. فسألته:

– ما الفرق إذن بين أولياء الله، وعلماء الأمة الإسلامية؟ قال لي:

– للعالِم علم ظاهر، وللولي علم باطن، وكلاهما يُكمل الآخر. فالعلم الظاهر هو علم الشريعة، ومقاصدها، وكلياتها الخمس بما يعني معرفة الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية. فاستوقفته.. **وسألته:**

– ما هي مقاصد الشريعة وما هي كلياتها يا سيدي، فقد غُمَّ على كلماتك ولم أفهم؟

نظر إلى معاتباً لغرابة سؤالي. وقال لي:

– كنتُ أظنك تعرفها يا بني، فهذه أمور يجب أن تعلمها قبل سلوك الطريق. فمن أين تستمد النور وأنت في هذا الجهل.. فخجلتُ من نفسي، ونظرتُ إليه مستحلفاً طيبته أن يترفق بي. فعقّب بقوله:

- مقاصد الشريعة الأربعة كما شرحها الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات، وابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة هي:

١. نفي الضرر، ورفعه، وقطعه.

٢ ـ تطبيق الكليات الشرعية الخمس.

٣ ـ العلل الجزئية للأحكام الفقهية.

٤ ـ مطلق المصلحة سواء كانت جلباً لمنفعة، أم درءً لمفسدة.

أما الكليات الخمس للشريعة فهي: حفظ (الدين، النفس، العقل، النسل، والمال).

وهذا العلم لا يختلف عليه اثنان، فهو الذي يحكم العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، أما العلم الباطن.. فسكتَ عن الكلام المباح كأنه صار غير موجود معي..

-19-

لقـد كان في سكوته فائدة عظيمة لي. استطعتُ أن أُلمم أقواله عن العلم الظاهـر، وأعيد قراءة ما تقع عليه عينـي من هذا العلم العظيم. وحين عاد من صمته، غشيتني الفرحة كي أستكمل معه أسئلتي.. فسألته

- وما هو العلم الباطن يا سيدي؟ قال:

- أقـرأت الآية الكريمة (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَـاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا). هذا العبد الصالح الذي تلقى العلم الدني من رب العزة، ورافقه سيدنا موسى كي يتعلم منه. فسألته بلهفة:

- وهل علم العبد الصالح أعلى من علم سيدنا موسى؟ ابتسم، وقال:

- علـم الأنبياء قائم على الوحي، يأتي بـه رب العزة على رسله للتشريع بين الناس، أما علم العبد الصالح فهو أمر من رب العزة للرحمة. ولا يملك العبد الصالح منه شيئاً، يقول رب العزة: وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَـةِ وَكَانَ تَحْتَـهُ كَنْـزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَـا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّـكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. سألته:

- وهل لي بهذا العلم يوماً؟ قال:

- رويـداً رويداً يا ولدي. لا تطمع في أكثر مما تعرفه من علم يجري على ألسنة المحبين الفانين في الله، فتتعلم منه دون أن تدركه. العلم الدني يقذفه رب العزة في قلوب بعض عباده الذين اختصهم به دون غيرهم.. يا ولدي.. للوصول مقامات. فسألته:

- لكنني أريد أن أفهم هذا العلم. فما هو أعزّك الله؟ قال لي:

- أما العلم الباطن، فإنه يرد من الرب إلى القلب دون المرور على العقل، فيستقر في الوجدان، ولا يخرج إلا بقدر، لينير طريقاً، أو ليفك طلسماً، أو ليعبّر عن مكنون الحب الإلهي دون أن يتجاوز الحق ولو بذرّة واحدة. وهو علمٌ يدركه العارف بفطنته، وتأمله، وإدراكه، ثم مراقبته، إلى أن يصل إلى اليقين فيه، فتتملكه البصيرة، أو ما يطلق عليها الشفافية، أو ما يعتقد فيه قليلو الإيمان بالكرامة.. فسألته:

- ما هو باب هذا العلم؟ قال:

- ليس باباً واحداً، بل لهذا العلم خمسة أبواب وهم: الفطنة ـ التأمل ـ الإدراك ـ المراقبة ـ اليقين ـ البصيرة. فسألته:

- فهل أطمع في كرمك بتعريفهم لي كما وجدته في كتبهم؟ قال:

-الفطنة يا ولدي هي: الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر. والتأمل هو انشغال العقل بالكليات، وإطلاقه إلى الفضاءات لتحفيز الوعي الداخلي. والإدراك هو إحاطة الشيء بكماله، أو كما قال أحد السادة الصوفيين: هو حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو إثبات، ويسمى هذا تصوراً، ومع الحكم على أحدهما، ويسمى هذا تصديقاً. أما المراقبة فيقول عنها الحارث المحاسبي (المراقبة علم القلب بقرب الرب)، ويقول مولانا الإمام الجُنَيد عن اليقين: هو استقرار العلم الذي لا ينقلب، ولا يحول، ولا يتغير في القلب.. وعن البصيرة ففي لسان العرب البصيرة هي: عقيدة القلب، قال رب العزة

في سورة يوسف (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وفي سورة القيامة (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ).

ثم اختفى مثلما جاء. وتركني غريقاً فيما قاله لي. لقد أخذني شيخي ورماني في جب المواجد بكلماته الآسرة، وعلمه الدني، حتى لكأنني قد أشرفتُ على الغرق في بحر علمه. وسألتُ نفسي: كيف لي أن أنال هذا العلم يوماً، وكل حرف فيه بحر لذاته. فآثرتُ الصمت مخافة الغرق. ثم أنشدتُ **قول الإمام علي ـ كرّم الله وجهه:**

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلّاء

وقدر كل أمرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... الناس موتى، وأهل العلم أحياء

ـ ٢٠

-20-

لقد تبدّل بي الحال، فلم يعد يأتيني النوم إلا قليلاً، وصرتُ لا أقوى على مجابهة هذا العلم الذي يأتيني من شيخي، وأحسستُ أن عقلي لم يعد يستجيب بما يأتي به هذا الشيخ الجليل. لم يشغلني كيف يظهر لي عندما أحتاجه، وليس لما يحتاجني هو، فهو ليس بحاجة لأمثالي. لكن ما يشغلني هو كيف استوعب هذا العلم، وكيف أعمل به.. فلماذا يأتيني إذن وأنا العبد الفاني. فسمعتُ هاتفاً يهتف في أذني:

- يا ولدي.. لقد وجدتُ فيك بذرة من خوف، وبذرة من وجْد، وبذرة من نور يغمر روحك المتعبة، ورأيت في أسئلتك الرجاء والتوسل في أن تعرف، بل وتغوص في الصمت المطبق حين تغيب عنك فهم الإجابة. فقلتُ له:

- الأمرُ جدٌّ عسير، والطريق من بدايته طويل، فكيف السبيل إلى ذلك الطريق، وقد أعياني البحث والأسئلة؟ قال لي:

- ماذا فهمتَ من أمس: علم الظاهر، أم علم الباطن، أو كليهما؟ فقلت له:

- ما أسهل ما أعرفه عن علم الظاهر، فهو علم الشريعة. أما علم الباطن فيحتاج إلى الفطنة والتأمل والتدريب حتى أصل فيه إلى اليقين. فكيف لي وأنا ما زلت أحبو في بداية الطريق؟ قال:

- يقول مولانا رسلان الدمشقي (ما دمت أنت معك أمرناك، فإذا فنيت عنك توليناك. فما تولاهم إلا بعد فنائهم فيه). فسألته:

- من مع من؟ قال:

-أنـت مع نفسك.. والمعنى: إذا كنت مع نفسـك الأمّارة بالسوء أمرناك بالطاعة والعبادة، فإذا فنيت عنك، أي إذا غابت عنك هذه النفس الأمّارة، تولينـاك بالعناية والرعاية والمشاهـدات واللوامع.. فما تولى رب العزة أهل الطريـق إلا بعد فنائهم فيه. فما سمعتُ هذا القول إلا وقد غامت عيني عن إدراك الواقع، ووقعتُ مغشياً على...

عندمـا انتبهـت بعد إغفاءتـي التـي لم أستطع تحديد كـم ظللت فيها، فوجدتـه أعلى رأسي يتلو بعضاً من آيات الذكر الحكيم، وأصابع يده تقبض علـى فروة الرأس المموجة من عدم الفهـم، ورأيته مبتسماً كعادته حين يغمُّ على من وجد..

-21-

بهـرني تفسيره لعبارة الشيخ رسـلان الدمشقي الملغـزة، وأخذتني إلى دنيـا جديدة، أبحث فيها عن نفسي الأمّارة بالسـوء لأستبعدها من طريقي الجديـد. فجاءني من حيث لا أدري كعادته، فسـررتُ سروراً عظيماً، ليفك لي لغز عبارة الدمشقي مرة أخرى. فلمّا واجهني. قلت له:

- لقـد بهـرني مولانا الشيخ رسـلان بعبارته، وقد شرحتهـا لي بالأمس يـا سيدي، لكنني وجـدتُ في شرحك ألغازاً على ألغـاز، فما فهمتُ اللغز ولا شرّحه. فكيف لي أن أفهم تلك اللغة التي أراها منغلقة إلا على أربابها؟ قال لي:

- إنهم يتحدثون بالحقيقة.. عين مراد الله لخلقه. سألته:

- وما الحقيقة؟ قال:

- الحقيقة أن ترى الحق حيث يراك، فإذا رأيته كنت عينه، فيجري على لسانـك ما لم تستطع البـوح به للعامة، فتأتي اللغة التـي سمعتها من مولانا الشيخ رسلان الدمشقي. سألته:

- وهل ترى أنني ما زلتُ مع نفسي، ولم أتخلص منها بعد؟ قال:

-حينما تدرك الحق تعالى حيث يراه الحق حقاً، لا كما تراه أنت. حينها ستكـون عارفاً بالله تعالى. فتـدرك اللحظة، والوقت، والأنـوار، دون تدخّل منك. سألته:

- وهل يمكن للعارف أن يدرك الحق حيث يراه الحق؟ قال:

- يقـول القطب الصوفي أبو الحسين النـوري: كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له. قلتُ له:

- حيرتني يا مولاي.. أراني عدتُ من حيث بدأت. سامحك اللّه يا مولاي.. قال:

- بل لقد خطوت أولى خطوات الترقي. داوم على الذكر ينكشف لك الطريق، ولا تيأس من عميق اللغة، فما وضعها أربابها إلا ليتقوا بها الجاهلين بالطريق. فسألته:

- وكيف أدرك من لا أمد له، وأنا بلا أمد؟ فقال لي:

-ألستَ عبداً فانياً. قلت:

-بلى. قال:

- إن طال عمرك أو قصر، فأنت فان. فكيف تدرك رب العزة الذي لا أمد ولا نهاية، يا ولدي خذ من دنياك ما يقيم أودَك، ويطيل أمدك، حتى تنال لحظة الفناء فيه، ولا تخاطر بنفسك في الطريق، بل دعها في دنياك، وارحل بروحك في الملكوت. فقلت له:

- آه.. قد قذفتني مرة أخرى في الجُبِّ يا مولاي..

-22-

عدتُ إلى عبارة النوري (كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له)، وقد فهمتها، لكنني لم أفهم مغزاها، وقد قذفها شيخي قذفاً هيناً في اتجاه عقلي، ثم تركني، فصرتُ أقلّب الجملة، وأخرج عن سياقها اللغوي والجمالي. فما أن أعياني التفكير، حاولت استدعاء شيخي كي أحاوره فيها، فما استجاب، كأنه رأى لا جدوى من تعليمي لجهلي بعلمه، أو انشغل بمن هو أفضل مني، أو راح في غيبوبته ولم يعد يتذكرني. فعدتُ إلى خلوتي، وانزويت مستكيناً، تائهاً، أوسّد راحة يدي تحت قدمي أتأمل فيما تبقي لي من كلمات قد تركها سيدي على قارعة مخي، أتلعثم في قراءتها، وأتعسر في فهمها، لعل يأتيني الفتح دون مساعدة.

أخذتُ في تدريب قلبي على تحمل الطريق، ومنعتُ نفسي من الظهور لقلبي، حتى لا يتأثر بها، أو بما سواها، وأغلقتُ باب الفهم على عقلي، حتى لا يتجاوز حد الإدراك، فيردّني إلى بداية الطريق.. فالعقل لم يعد في إمكانه تقبل المزيد، فقد أغلقه شيخي عن التفكير من قبل، وقدّم القلب على العقل، وفاجأني بجملته الملغزة (للوصول مقامات)، فسألتُ قلبي.. من أين أبدأ.. فنطق لساني بمكنون قد انتابني فترة، أثناء محاولتي الكتابة:

بلمْع منه أبتدئ

فأعرفه

وعمري فيه ممدود

فنائي فيه أوصلني

بأن دوامه أبدُ

يقينٌ.. لا يحدده

سوى قلب يكاشفه

فينمو فيه توحيد

فأبتدئ

فهتفتُ.. يا إلهي.. هذا أول الطريق مقام الابتداء. وأخذتُ أنادي على شيخي:

ـ هل سمعتني يا سيدي؟

-23-

تلقفني بابتسامة رضا، وناولني كوب ماء بارد، أفرغتُ نصفه في جوفي، وألقيتُ نصفه الآخر فوق رأسي من هول المفاجأة والدهشة، التي خرجت من عيني، وأنا أشاهد احتفاظ الماء ببرودته في هذا الجو الساخن. فسألته:

- كيف حافظتْ يداك على برودة هذا الماء؟ قال:

- لا تسأل.. لأني لن أجيب. فسألته:

- غبتَ عني الأمس.. لماذا؟ قال:

- رأيتك بقلبي تبدأ الطريق وحدك. ففرحتُ بك، ولم أشأ أن أقطع عليك خلوتك، شاهدتكَ حاضراً فيها بقلبك. فسألته متلهفاً وسعيداً:

- وهل كنتُ في وقت وصْلٍ أم وقت انقطاع؟ قال:

- لقد تحسنتْ لغتك يا ولدي.. وقتك قريب من الوصل. فاندهشْ، واجتهدْ، فتأتيك الجذبةَ دون أن تدري.. هذه من مقامات الوصول.. فإذا ما أمعنت النظرة وقت الانجذاب، تخلتْ عنك النفس الأمارة . . . فسألته:

- ثم ماذا؟ قال:

- يقول الإمام القشيري (اللّه سبحانه وتعالى يهب لمن يشاء من عباده من لطفه ورحمته وقت الوصول). فسألته:

- وهل لوقت الوصول وقت؟ قال:

- الوقت وقتك يا بني، فاقتنص لذاتك. فالوصل لا يأتي إلا كلمح بالبصر. ثم تركني حائراً مندهشاً، وسمعته وهو يردد:

- إن أخلصَ هذا الولد في العشق،
وانقطعتْ عنه الدنيا،
وانطفأتْ نار الجذوة في القلب،
وسريتْ فيه أنوار الحب،
لأصبح عبداً ربانياً،
ودام في الحق تعالى،
ديمومة لن يبلغها عاشق مثله.

-24-

فاجـأني أثناء نومي، ويداه فوق رأسـي، ولسانه يلهج بالدعاء ـ كأنه يتلو رقيـة شرعيـة لي ـ فتحتُ عيني علـى همساته، فوجدته بهـي الطلعة، يغلّفً وجهه نورٌ يشع بهجة وسروراً. همس כּ أذني.

– اصحـى يا بني. لقد غفوتَ كثيراً هـذه الليلة. فقلت له، والنوم يداعب جفوني التي ملأها نور وجهه:

– ما أبهى طلعتك يا سيدي. لكنني لم أنم إلا قليلاً، وإنّ لبدني علي حق.

قال لي:

– الحق ليس لبدنك، إنما لروحك المتعبة، فأرحها بالعبادة، وذكر اللّه.

فسألته:

– وكيف لي أن أحسَّ بسلامة روحي، والبدن عليل؟ قال:

– لا تأتي العلة כּ البدن إلا بفساد الروح. سألته متوجساً بفساد روحي:

– وكيف لي بسلامة الروح، وأنا الفاني ذو الأمد؟ قال:

– أَمَـدُك محدود بحد الطاعة. فـإذا زادت طاعتك، زاد أَمَدُك. فسألته وأنا أُبدي له ضعفي:

– لكنني منهك القوى، وقلبي لا يقوى على مجابهة الطريق. فكيف لي أن أمدّ الأمَدَ כּ أَمَدي؟ قال:

– ألا تنتظر منه تعالى مدداً، حباً כּ ذاته. فسألته:

– وكيف لا أطلب منه تعالى مدداً، وهو أقرب لي من حبل الوريد؟ قال:

- إذا أخلصتَ له تعالى الدعاء، فعليه الإجابة.. ثم همهم مبتعداً: لا تنسى أنك في مقام الاجتهاد إذن. سألته:

- وكيف عرفتَ أنني في مقام الاجتهاد؟ قال:

- ألستَ من قائل: وعمري فيه ممدود. قلتُ وأنا أبدي دهشتي لمقولتي التي لم يسمعها غيري:

- بلى. قال:

- ألستَ من قائل: فينمو فيه توحيد. قلتُ:

- بلى. فقال:

- وكيف كان حالك وأنت تتلو ما ألمّ بقلبك من معرفة؟ قلت:

- في منطقة اللاوعي، حيث لا أرى نفسي، ولا أحس بنبض قلبي، ولا أعرف شمالي من يميني. فقال:

- لقد دخلت مقام المعرفة، وهو مقام الابتداء، فأخلص الدعاء

ولمّا هممتُ بسؤاله عن إخلاص الدعاء.. كان قد اختفى كطيف في الملأ.

-25-

هكـذا عوّدني صاحبي ـ إذا جاز لي أن أطلق عليه صاحبي ـ أن يأتي إلى منفـرداً، ويذهب عني ومعه روحي. فأظـلُ بين اليقظة والمنام أنتظر عودته. واليـوم أتاني لائذاً مضطرباً، زائـغ البصر، كأنه لم ينم لشهر مضى، أتاني مستجـيراً من الرمضاء بالنار، أجلسته، وأحضرتُ له شربة ماء، فأشار لي بأنه صائم. فانتظرتُ حتى استرد جزءاً من وعيه المفقود، وقلت له:

- خير يا مولانا؟ قال لي في سكينة:

- البحـر عميق، والريح عاتيـة، والشراع لم يعد يتحمـل مغبة الطريق، وقلبي لم يعد شاباً ليقود دفّة روحي. فسألته وأنا أشدُّ إيلاماً منه:

- وهل لك أن تتراجع عن الطريق؟ قال:

- الطريق محتوم، والأمد معلوم. بل عاقبني ربي لطرفة عيني عن ذكره تعالى. فسألته:

- لماذا العقاب إذن، وأنت ملتزم في طريق الحق؟ قال:

- وهـل لي أن أسـأل ربي في عطاياه، أو في عقابه. ربما لأنني قد أظهرت لك بعضاً من عطاءاته لي. فقلتُ له:

- لكنني مريدك يا سيدي، وقد تعلمتُ منك كتم السر حتى عن نفسي.

قال:

- كتـم السر دَيْـدَن العارفين، نعم، حتـى عن أرواحهم. فيـا لهفي على روحـي إذا علمتْ شمـالي ما قدمتْ يمينـي. سأقبع في خلوتـي حتى أسترد يقيني، أو أقضي نحبي. إنه الوداع يا ولدي إذن. قلتُ:

- جئتَ لي وأنا في أشد الاحتياج إليك، فكيف تتركني، وأنا الغريق الذي ينتظر قشة الحياة. فقال لي والابتسامة لا تفارق وجهه رغم علّته:

- لا تنظـر إلى الحياة إلا كعابر سبيـل، ولا تنتظر الموت إلا وحبك للحق قد تملّك قلبك، ولا تتعلق بمن هو فان مثلي، فما أنا إلا عابر سبيل مر عليك لحظـةً، دلّك على الطريق برغبة منك، وفي الغـد ستكون أنت أنت.. وحدك ولا أحد معك إلا هو.. إلا هو.. وليس سواه.. إلا هو..

ثم انصرف عنــي، وتركني مهموماً عليه، وعلى نفسي، وأنا أردد مقولته (كتم السر دَيْدَن العارفين).

-26-

اللهـم يا واصـل المنقطعين، ومـلاذ العابرين، أوصلنـا بوصلك وعفوك ورحمتـك، آمنين مطمئنـين.. دعوتُها لشيخي الطيب الذي مـا وصلني منه إلا كل خير، ووضع قدمي في أول الطريق، وجَرتْ في عروقي على يديه محبة الحـق تعالى. فسمعتُ هاتفـاً يهمس في أذني (آمـين).. فاستبشرتُ خيراً، وفرحتُ فرحاً شديداً.. وسألته هامساً:

- أأنت أنت يا سيدي؟ فسمعت الهاتف يقول لي:

- أنا أنا يا ولدي. بارك الله فيك.. فسألته:

- متى أراك؟ قال:

- لم تعـد في حاجة إلى منذ أمـس. فالزم طريقك، واخْفِ نفسك عنك، وصـفِّ روحك بك، وأطبْ معشرك، واهجرْ الدنيا، ولُذْ للسماء، تجد راحتك في قربـه أشهـى من الدنيـا وما فيها. وأمِـتْ قلبك إلا عن ذكـره.. ثم إياك إيـاك والغيبة عـن الحقيقة لحظة، مهما اختلفتْ بك الأحـوال، وتقلبتْ بك المرامـات، وجاءتـك البشـارات.. والأهم الأهم عليك بكتـم السر حتى عن نفسك.. فسألته متعجباً:

- لقد أثقلت على هذا الأمر يا سيدي. فكيف لي أن أخفي نفسي عني؟

فقال:

- ألا تعلم نفسك ما تروم به روحك. فسألته:

- وهل لروحي مرامات لا تعلمها نفسي؟ قال:

– يـا ولـدي.. أنسيتَ (ما دمت أنت معك أمرنـاك) إنه الوداع يا ولدي. فسألته راجياً:

– وماذا عنك يا سيدي؟ وأنت دليلي إلى الطريق، هل دخلتَ مقام الفقد، ولن أراك ثانية؟ فجاءني همسه معاتباً:

– أنـا منذ عشرين عام بـين الوجد والفقد، إذا وجدت ربي فقدت قلبي، وإذا وجدت قلبي فقدت ربي. (مدارج السالكين). فسألته:

– عشـرون عـام وأنت بين الوجد والفقد، ولم تبلغ بعـد مرتبة العارفين. فمـاذا أنا فاعل؟ وما سبيلي للوصول؟ وكيـف أشعر بلحظات الوجد والفقد حينئذ؟ لكنه قد غاب طيفه عني فجأة دون أن يجيبني كعادته..

لم أدر كيـف نزلـت تلك الدمـوع من عيني، ولماذا كل هـذا البكاء. أعلى فراقه أبكي؟ أم من خشيتي مما سيجيئ؟

-27-

في تلـك الليلــة لم أنم أبداً. فقد ظلّت روحي هائمــة بين الجَلوة والخلوة، تأخـذني السمــاء الصافية المليئــة بالنجوم المتلألئــة إلى مواطن لم أدخلها مــن قبل.. حالة من الشفافية والصفــاء الروحي شغلتني عن مداومة الذكر والدعــاء. كأنني شربتُ من خمر الوصال مــا رواني في عمري المحدود. وقد سمعتُ من شيخي عن بن عطاء الله السكندري (عبد شرب، فازداد صحواً، وغــاب، فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عــن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصدّه عن بقائه، ولا بقاؤه يصدّه عن فنائه، ويعطي كل ذي قسـط قسطه، ويوفي كل ذي حــق حقه (الحكم الطائيــة).. فهل بلغتُ تلك المرحلة. لقد أحسستُ بحاجتي إلى شيخي في تلك الليلة، وحاولت استرجاع هيئته لعلني أجد جواباً لحيرتي. أمضيت ليلتي مغمض العينين ولساني يلهج بالدعــاء حتى قبيـل الفجر بقليل، فكانــت الهمسة التي غمرتنــي بالدموع. وكان صوتــه جلياً في قلبي، كأنه يستوحش لياليه معي. فتحتُ عيني كي أراه، وأمــلأ عيني من وجهه، فلم أر له رسماً ولا جسماً، فتعجبتُ، وهتفتُ له: أين أنت يا سيدي، فإنني لا أراك؟ فقال لي:

– ومــاذا يعنيــك.. رسمي أم قــولي؟ أما زلتَ على سُكْـرك وتوهتك بعد أن تركتــك معــك، تجادلها للبعــد عنك؟ فما وجــدتُ فيــك إلا تشبثها بك، والتصاقها بقلبك، حتى لا يخرج إلى معية أخرى غيرها؟ فقلتُ له:

– نعــم.. هو ذا. لكنها لم تعد تتملكني كمــا كانت من قبل، فقد عرفتها،

ورؤدتهـا، وأثقلت عليها، فلا تعود إلى إلا بثناء الناس عليها. فكيف أتخلص منها، وهي بالكاد تتوحد معي ولا سبيل في ذلك إلا بالموت؟ قال لي:

– يا ولدي.. من عرف نفسه، لم يغتر بثناء الناس. وأنت لم تعد أنت كما كنـت من قبل. فالزم نفسك بالطاعة، واحرمهـا من ملذات الدنيا تطيعك، واقسـو عليهـا بمداومة قيام الليل تأتيـك راضية بما قسمتـه لها، ستجدها طيّعـة وليّنة وإن أصابها الوهن . . . وخُضّ طريقك وحدك، تجد كل لياليك صفاء. هتفت له صائحاً:

– اللّه اللّه يـا مولانا. أين أنـت إذن؟ لقد استوحشتُ لياليك، والليلة ليلة القدر. قال:

– يا بني.. من عرف الحق، كانت كل لياليه ليلة القدر. فهتفت:

– اللّه اللّه.. ثم أُغمى علي.

-28-

جلسـتُ أمـام خلوتي أتأمل صفحة السماء المعتمـة إلا من ضياء النجوم التـي ثقّبت ثوبها الأسود، وكنتُ في حالـة وجْدٍ وشوق. كانت عيناي تغوصان فيمـا وراء النجـوم البعيدة، فتصفو روحي، ويسكن فيهـا ألق لم أشهده من قبل، فكانت الجذبة التي راحت تتملكني بمكنون السر في غيبة الوقت، وكنت في حاجة لشيخي في تلك اللحظة الآسرة للقلب. فأغمضت عيني لعلني أجده جـواري. فما هي إلا لحظـة عابرة والتقطت أذنيا حمحمـة، وصفقة خفيفة على كفين ناعمـين، أحسست بنعومتهما من نغمـة الصفقة، فوجدت امرأة تنحنـي برأسهـا نحـو وجهـي، وفي يديها الشمـال طفل صغـير. فتراجعت برأسـي قليلاً، حتى لا تصطدم عينـي بما تهوى النفس، وتاباه الروح. فقلت لها والحيرة تملأني:

- ماذا تريدين يا سيدتي أعزك الله؟ قالت بتضرع:

- ابنـي شلبي يـا مولانا لم يعد يرى الأشياء كما يجـب، وجئت إليك كي ترقيـه، وتغمـره بكراماتك، ربما يُكتـب على يديك الشفاء. فقلـت لها، وأنا أنظر إلى موضع قدمي:

- لسـت مولى أحد يا سيدتـي. ولا أملك رقية أو قـدرة على شفاء أحد. لقـد ضللتِ الطريق حين أتيـتِ إلى هنا. هنـاك حيث مولانا في الخلاء، ربما يقضي لكِ حاجتك. فقالت بتضرع:

-مـن؟ الشيخ همّام؟ هو من أرسلني إليك، وقال لي بكل فخر: أن سرّك

باتع. فلا تردّني خائبة يا مولانا. أرسلتُ تنهيدة اهتز لها بدني وقلت بمرارة العاجز:

- لـو قال الشيخ همّام ذلك حقاً، فأنا الآن ميّت لا محال، والميّت لا يقوى علـى ما تطلبيه. اذهبي يا سيدتي، اذهبي.. وأخبري من أخبركِ، بأنكِ قد وجدتني ميتاً. فشقّت عـن صدرها، وأخرجت كيساً من النقود، وتركت شق صدرهـا مفتوحاً لتظهر مـا تخبئه عن العامة. فأُسقـط في يدي، وقلت لها، والرجاء يسبق لساني:

- حرام عليك يا سيدتي!

لم أتمنـى المـوت إلا في تلـك اللحظـة، فقـد جـاءت لتعطـي، لا لتأخذ. والاختبـار عسـير، والأمر جد خطـير، فصرخـتُ.. يا رب أغثنـي.. يا رب أغثنـي. فانسحبت المرأة بولدها حين رجّ صوتي السماء. فلمّا هدأت نفسي، وجدتـه يطلُّ مـن زاوية الخلـوة، ويغمـزني بعصاته في صـدري، ويقول لي مبتسماً:

- لقد نجوتَ يا ولدي.. لقد نجوت.

-29-

أخذتنـــي واقعة أمس بعيداً عن موضع خلوتـــي، حيث لا موضع لقدم، ولا مجال لرؤية، ولا خوف على مستقبل.. هل ما حدث في تلك الليلة ما يطلقون عليه أهل الطريق (الامتحان). لقد أحسستُ بروحي تخرجُ مني وتحلّقُ فوق الـروح المُشعّـة إلى جسدي المستكـين.. كم أنا أحتاجـك الآن يا شيخي أكثر من أي وقت مضى. تأتيني اللمعة في الخلوة كومضة ضوء متناهية الألوان.. وكيـف رأيتهـا بعين البصـيرة وليس بعين البصـر الذي سكـن في الجسد. وهـل صرتُ من أهـل الجذبة بعدهـا.. أسئلة كثيرة راودتنـي بعدما عادت تلـك الومضات ليوم آخر. لقد أخذّتني مـن نفسي إلى طريق ليس له نهاية، وتركتنـي تائهاً في معية روحي الهائمـة في الناشئ.. متى تفتح بابك الموصد عني أيها الشيخ الجليل، وأنا ما زلتُ مريدك، وكاتم سرك.

مضيتُ اليوم كله أبحث عنه دون جدوى.. بالأمس كان يأتيني دون دعوة. اليـوم أدعوه لأسألـه ولا مجيب.. ترى أين أنت الآن يـا شيخي، وقد أخذني منك الوجْد كل الوجْد، وانجذبتُ في رحابة الحق وحدي. ركنتُ رأسي خلف أحـد أعمدة المسجـد الكبير أتلـو وِرْدي من القرآن الكـريم كعادتي بعد كل صلاة عشاء. فإذا به يلكزني في قدمي. وقال لي:

– انهضـ يا بنـي، فقد استبد بك الجوع، ولن تقـوى على مجابهة الروح الجائعـة. تهلـل وجهـي، وغمـرتْ عيني دموع كثـيرة، وخرجـتُ معه، حيث الفضاء العريض يضمنا معاً، ولا أحد. فسألته: ماذا حدث لي بالأمس؟

قال:

- قولك في الجذبة رسم لك الطريق. فسألته:
- وهل في قولي ما يدلّ على حدوث شيء؟ قال:
- وقتك انقطع بين طرفي الوقت، إنها الجذبة يا بني. سألته:
- وهل للجذبة علامات؟ قال:
- كتم السر دَيّدن العارفين.. هل نسيت يا ولدي؟ فسألته في شوق محموم لإجابته:
- وهل صرتُ من العارفين يا سيدي؟ فقال:
- هـذا سؤال لا يسأله مريد، فكيف بـك وأنت الآن على طريق السالكين المجذوبين. وتركني في حيرتي..

-30-

هالني صوتـه يأتيني عبر الفضاء العريض، ولم أعرف مصدراً له سوى همساته التي تضرب في أذني حين قال:

- لقـد أخذتكَ الجذبة سريعاً يا بني، وما قلته هو (عين الحقيقة)، لقد انقطع وقتك عنك، ورأيتك بينهم، فاكتم السر، وداوم على مؤانسة الطريق وحدك، فقد تفوز بالمشاهدات، وتجرفك اللواحم واللوامع والبوارق إلى بحر علمـه، حيـث لا علم إلا علمه، ولا وقت إلا وقتـه، ولا ديمومة إلا ديمومته، ولا طريـق إلا طريقـه الذي ليس له طرفان.. هذا مقـام العارفين يا ولدي، فما بلغه إلا الفانين فيه.

الآن قـد فهمت سر غضبه بعدمـا استرجعت كلماته لي بالأمس. ولكنني وجدتُ نفسي أسأله:

- هل الجذبة هي حالة من حالات الوجْد؟ فأجاب:

- الوجْـد يأتي بالجذبـة، والجذبة تأتي من البارقـة، والبارقة نور يمس القلـب من عالم الغيب. سألته ليزداد يقيني بما أنا فيه من جذبة، وما بلغته من وجد:

- وهل تدوم الجذبة، أم تنقطع؟ فأجابني:

- الجذبـة ومضـة تقطع بـين وقتين، أحدهمـا ما قبل الجذبـة في حالة الوجْد، والأخرى المستحيل الذي يرجى دوامه في قمة الوجْد، ولكنه لا يدوم.

فسألته:

- وكيف تكون الجذبة؟ قال:

- وأنــت في حالة الوجْـد الشديد ترى روحك منجذبــة إلى الملأ الأعلى، فتأخــذك معها إلى وقت مفقود بين الوقتين، فتقذف في قلبك بارقة لكنها لا تدوم. سألته:

- وإذا دامت البارقة؟ قال:

- تأخذ روحك إلى الملأ الأعلى، ولا تعود. فمن تملّكتَ البارقة فيه مات.

فسألته:

- هل هو الموت الذي نعرفه، أم موت آخر لا نعرفه؟ فابتسم وقال:

- من تملّكت فيه البارقة في حالة جذبته انفلت من حياته الدنيا، وانقطع عــن مشاهــدة الرســوم، وانغمست حواســه في البحر العميــق.. هي مرحلة الانفلات يا ولدي، ومقامها يأتي بعد الجذبة وقبل الانعتاق . . .

كفى أسئلة، وعُدْ.. فسألته:

- إلى أين؟ فأخذ يلوح بعصاه في الفضاء البعيد ويصيح:

- إليه يا ولدي.. إليه هو.. فهو هو ولا شيء سواه هو . . .

-31-

لم أكد أنتهي من إنشادي، إلا وسمعت شيئاً يسقط تحت قدمي، فوجدته شيخي.. بشحمه ولحمه، لكنه كان ساكناً إلا من لسان يهمس بدعاء (اللهم هـذا عبدك وابن عبـدك وأمَتك، فتقبل منه أفعالـه وأقواله، فإنه يروم إلى لقيـاك، وقد ألف الوحـدة، ورافق الصمت، وزايل النفـس، وسلك الطريق، وأخفى سره حتى عن نفسه، فجُدّ عليه بما تجود به على عبادك المخلصين)، وسمعته يقول آمين، فقلت آمين.. آمين. وحينها رفع يده إلى مفرق رأسي،

وقال لي:

- أدع لي يـا ولدي. أدع لي.. فقد رأيتك تُسْرِعُ في الطريق تلاحق الضوء المسرب من بين عينيك وتتخطاه.. فسألته مندهشاً مما يقول:

- يـا سيدي لا تزيـدني غموضاً عما أنا فيه.. كيـف لي أن أسير بسرعة أسرع من سرعة الضوء، إلا إذا صرتُ روحاً من غير جسد؟ فقال لي:

- وهل تحس بجسدك الآن يا ولدي؟ فقد شفّتْ روحك من علائق الدنيا، وصـرتَ نوراً يمشـي على الأرض. هكذا رأيتك يـا ولدي.. هكـذا رأيتك.. فسألته:

- لكنني لم أدرك هذا الأمر يا سيدي. فكيف لي إدراك ما لا يُدرك؟

فأجابني:

- ليس عليك إدراكه. فأنت في حالة وجْد لا تسمح لك برؤية مكنون ذاتك التي تلاشت في نوره الأبدي. فسألته:

- أوَجْدٌ إذن، أم فقْد؟ قال:

- لا تنشغـل بحالتك، دعها كما ترد إليك، ولا تسأل، فتفقد روحك، وإذا فقدتَ روحك فلن تعود إليك. فسألته:

- أأموتٌّ إذن؟ فأجابني، وعيناه تفيضان من الدموع..

- الموت حياة، والحياة موت.. الموت والحياة لا يليقان بالعارفين. فسألته:

- ماذا يليق بهم إذن؟ فأجابني:

- الحضورُ من بعد غياب.. فلا حضور بغير غياب.

فغابت روحي في إغفاءة طويلة، لم أدر متى انتهيت منها. وعندما صحوتُ وجـدتُ عصاه الطويلـة معلقة مكان تلـك العصا التي أدانيهـا في أول لقاء جمعنا. فأخـذتُ العصا بيدي ووقفتُ أمام البــاب أتأهب للخروج، فخجلتُ من نفسي، ونظرتُ إليها بإعجاب، وأعدتُها إلى مكانها..

-32-

وجدتـــي بين إغفاءة وإغفاءة، أكاد أطير فرحـاً من شدة الوجْد. أغيب فلا رسوم تلازمني ولا أرق. أشربُ من نور بهاه، فأصحو، وأغيب، فتتلاشى عني رسومي، فأظل هكذا في حال بين الوجْد والفقد، حتى شعرتُ أنني طيف بـين وقتـين مقطوعين عن وقتي، فلمّـا تغمدني المولى برحمتـه ونمتُ قليلاً، استكانت روحي في جسدي، فوجدتني ممدداً في خلوتي الخالية من حياة إلا شربة ماء هي كل مملكتـي وممتلكاتي، فأخذتُ رشفة منها، فخرجتْ عرقاً رائقـاً دافئاً يجعل من جسدي كبحـيرة ماء يغمرها الضوء. فانسابت روحي داخـل جسـدي الذي لا أعرفه من شـدة الوجْد. أطوف طـواف إفاضة دون وداع، لم أعد أتذكرُ شيخي الطيب الذي أخذ بيدي يوماً ما في هذا الطريق. لقـد أحسستُ أنني قد بلغت مكانته عندي، وأحسستُ أني قد ارتقيتُ مثله.. يا الله.. يا حكيم. لقد نجوت بك إليك.. وما زال قلبي ينبض بذكرك وحسن عبادتك. لك وحدك ألوذ بك.. لك وحدك.. ولا أخشى إلا منك.

لم أكد أغفو قليلاً بعد ليلة، أخذني فيها الوجْد، إلا وأحسستُ بيد حانية تشدني من يدي لأقوم. وسمعتُ همسه:

- أرفـق بنفسك يا بني.. أرفق بنفسك. فما زال طريقك طويل، وعمرك قصـير، ومـا تعلمته بالأمس لا يقيم أَوَد، ولا يشفـي علة، أو يوصلك للمراد. فقد اجتهدتَ.. نعـم، لكنك لم تبلغ نهاية الرحلة بعد. ما زال أمامك الكثير لتحرر روحك بذلك المكنون الذي يفني في محبته.. فسألته:

- ألم أتحرر بعد؟ فأجابني:

- العبودية عتق، والحرية رتق، ما دام في عينيك عشق، وما دام في قلبك عمق. فلا جمعٌ يحييك ولا فرق.. اللهم خذ بيديه إليك . . .

خرجتِ الكلماتُ من فمه دفقة واحدة، ملغزة، مكثّفة، قوية، لا تقبلُ التأويل إلا من أربابها. فصرختُ عليه مردداً: لقد فهمتها يا شيخي.. لقد فهمتها. فأشار إلى بالعصا الصغيرة، وقال:

- لقد كَبُرَت العصا..

-33-

انتابني شعور غريب وأنا في حالة الوجْد الذي اجتاحني بالأمس، ولم أدْرِ بوجودي في هذا الكون.. شعور كطيف ضوئي ينطلق في طريق مطلق لا بداية له ولا انتهاء، ولا يحدّه حدود.. لا سقف، ولا أرض، فقط نقط مضيئة تتخلل طيفي فتهزني، فأشعر بانتشاء وسعادة، وأنساب في لا معالم تجسدني. فسألتُ نفسي: ما سر هذا الوجود الجديد الحادث لي.. ما لبث أن ظهر أمامي طيف شيخي يتلمسن.. وقال لي:

- لا تسأل عن أشياء إن تبدَ لك تؤسك. ففرحت بقدومه، واستشعرت بسعادته عندما رآني على حالتي هذه. فسألته

- هل متُّ يقيناً. وهذه روحي التي أراها طيفاً؟ فقال لي:

- الموت حق لكل حادث في هذا الكون. فسألته:

- هل صرتُ حادثاً في هذا الوجود؟ فأجابني:

- هذا الكون، وجميع الأكوان الأخرى ما هي إلا حوادث لخلقه تعالى.

فسألته:

- هل في الأكوان الأخرى موجودات كموجوداتنا؟ قال:

- الأكوان مليئة بالأسرار، ولا يعلمها إلا خالقها، فهو تعالى موجِدُها ومحدِثُها، ويحكمها بقوانينه التي لا نعلمها. فسألته:

- وهل لكل موجود وجود حادث له؟ فأجابني:

- نعم.. إلا وجه الله تعالى، فإنه مطلق لا حادث له. إنه مبدأ (العلّية)

التـي نادى بـه فلاسفة الإسلام الأوائـل. فسألته بما أعلم عـن علم الغرب الذي درسته من قبل:

- لكـن العـالم الألماني "هايز برج" قد نفى هـذا المبدأ في نظريته التي تحمـل الشـك والريبة في العلـم. ألا تنطبق نظريته هـذه في بعض الظواهر الكونية التي تظهر في الوجود دون موجود لها في الظاهر؟ فقال:

- إنه فهم قاصر لنظرية (العلّية) يا بني، وإذا أمعن قليلاً لوجد أن لكل معلـول علة حادثة له، ولو تتبع مسار الحوادث لردّها كلها إلى خالق واحد لا حـادث له، وهو رب العـزة تعالى شأنه وجلّ خلقه. العقـل المتغير قاصر عن إدراك المطلق الثابت. فسألته:

- متى يدرك العقل كينونة المطلق؟ قال:

- إذا مات العقل، وبقي القلب.. كفاك أسئلة، وقم توضأ، وصلّي ركعتين.

-34-

لم يمر بي هذا اللقاء العابر مع شيخي مروراً عابراً، فقد تمنيتُ أن يدوم أكثر من تلك الهنية التي فاجأني بها الشيخ وأنا في حالة الوجد لأسأله فيما يجيش في صدري من أسئلة عن الوجود الظاهر والوجود الباطن. فإذا كنتُ قد انفلتُّ من علائق الدنيا، وصرتُ في جذبة الوقت. فمتى أنعتقُ، وينالني الحضور بلا وجْد ولا فقْد. فأنشدتُ بما علق في قلبي وعقلي ومخيلتي عن مقام الانعتاق الذي أروم إليه بعد هذا العناء.. فقلت:

وأنعتق

فيكشف لي بمكنون يزلزلني

فأفنى في محبته

فيعصمني

....

فسمعت شيخي يهتف في أذني:

- اللّه عليك يا بني.. إياك.. إياك وبوح السر.. فبادرته بالسؤال:

- هل انعتقتُ يا شيخي، أم ما زالت علقة من علائق الدنيا تجذبني إليها؟ قال:

-أنت من يجيب على هذا السؤال. من الآن ستكون لكلماتك معنى آخر عما يفهمه العامة من الناس، لقد أخذتَ وقتك كله، وتعلمتَ لغة القوم وطريقهم، حتى بلغتَ منتهاه، فاحرص على كلماتك، وما يجري عليك من

أسـرار، وكن رفيقاً بنفسك، عفيفاً بروحك، قويـاً بقلبك، شفيفاً بجسدك، ولا تغتر بثناء الناس عليك، وداوم على العبادة والذكر، ولا تخرج عن طريق القـرآن والسنـة، فهما نوراك اللـذان تهتدي بهما، ولا تبـوح بأسرارك، ولا تُظهر ما يعتليك من كرامات، واخفض جناحك على مريديك، وكن أنت كما أنت من قبل الجذبة.. فسألته:

- أهذه شهادة إذن؟ قال:

- يا ولدي.. يا ولدي!

فكررتُ سؤالي: أهذه شهادة إذن؟ فقال:

- يا ولدي.. وماذا تعنيك شهادتي، وأنت أعلى مقاماً منها، وأجلّ منزلة فيها. فسألته:

- فهل أدركتُ اللحظة، وأمسكتُ الجذبة، وأسكنتُ الوقتَ في حال وجدي وفقدي، وبلغتُ طريقي، وسترتُ عيوبي؟

نظر إليَّ بإشفاق وحب كبيرين، لكنه لم يجبني. وابتسم ابتسامة أضاءت وجهه، واختفى فجأة مثلما جاء فجأة.

-35-

لم تكـن لدي القـدرة على التنفـس، وأسـأل نفسي وتسألنـي، وتجيبني وأجيبهـا، وأحـاول أن أُخرِجها فتُخرِجني، فتترجـاني مستعطفه أن أتنفس بعض هواء لتبقيني قيد الحيـاة، فأصرخ فيها: وما جـدوى التنفس لجسم فـان.. أُخرجي، أو موتـي.. فليس لي حاجة إليكِ بعـد الآن.. والآن هو ذلك الوقتُ الذي أدخله في المعية، إن الحق يناديني، وأناجيه، أهيمُ به، فيمنحني القدرة على القرب منه، أستجيرُ به إليه، فيهبني أماناً وسكينة ويقيناً، أخلعُ روحـي أمامه، فيسترني من قبضة الشرك به، أصـومُ لأجله، فيطعمني بما تشتهـي به الأنفـس من طعام، أقـتربُ إليه، فيمد لي يـد الرحمة والمغفرة، أحدّثه، فيجيبني بما لا يخطر على قلبي وروحي وكياني من برد وسلام . . .

وقفتُ أمـام خلوتي، وفي يدي العصا أتطلـع إلى السماء التي بدا الفجر ينبلـج بنوره فيها، ويضع خطوطـه البيضاء متراصة في حِزَم ضوئية، فتبدد عتمتها، وتمنحها حياة جديدة ليوم جديد يشهد بوحدانية الخالق. مر طيف شيخـي من بعيد، رأيته يبتسـم لي، وكان قد غاب عني فترة ليس بقصيرة، تركنـي فيها وحيداً، بعـد أن نصحني بكتم السر، وصـون العهد، والمداومة على الذكر. فسمعته يهاتفني:

- يا ولدي.. كيف أصبحت بعد ليلتك؟ وكيف أراك وقد استطلت عن عصاك؟

كان سؤال شيخي مبهماً لي، يحمل دلالات جديدة عني، فقلتُ له:

- أنت مرآتي يا سيدي.. فأنا أراني فيك. فقال بحدة:

- أنت مرآة ذاتك يا ولدي.. لا تنسى ذلك أبداً.. فالمرءُ لا يخرج عن ذاته إلا بالمـوت. فكـن أنت لا غيرك. وما أنا أو غـيري إلا ظواهر تراها بعينيك.. رسـوم بعضهـا زائف، وبعضها جَلي، فلا يُشغلنّك منهـا إلا بما تبدو لك من ظاهر. فقلتُ له:

- لكنّي ما زلتُ أراك شيخي الذي تعلمت منه. قال:

- أنـت الآن قـد تجاوزت تلك المرحلة، وتقلبـت في مجاهدات ومقامات، ودخلت مكاناً لم يبلغه إلا العارفون.. قلبي معك يا ولدي.. قلبي معك.

لم يكن طيف شيخي إلا إنذاراً لي بألا أتجاوز مكاني الذي دخلتُ فيه، أو ارتدَّ لمكانٍ تركته منذ زمن ولّى...

-36-

قال لي شيخي مرّة علـى لسان مولانا النِفّري (الخلوة والعبادة قرينان، إن غـاب أحدهما، غاب الأخـر). فسألته حينها: إن كانـت الخلوة والعبادة قرينان، فكيف أسعى إليهما معاً دون فقد أحدهما؟ حينها قال لي:

- الخلـوة يا بني ألا تجعـل بينك وبين الحق حجـاب. والعبادة أن تجعل توبتـك بالنهـار صيامـاً، وتوبتـك بالليل قيامـاً، وقِفْ عند حـد الرضا، ولا تنتظـر من الحق عطاءاً، فإن في الانتظار قتـلٌ لماهية الصبر والرضا.. فإن حد الصـبر والرضا هو استواء المنع والعطاء، وبهما قد أعلنتَ حبك صافياً للحق لا للأغيار.

يا اللّه . . . كيف لي بهذا الصبر، وهذا الرضا، وأنا ذلك المريد الذي لم ينفـك يدخل طريق السالكـين. لكن شيخي أكد لي بأنني قد دخلتُ فيه، فما هـي العلامة يا ربي.. الإشارة.. الدليل. كانت لحظات الصفاء التي أحياها في معية الحق تأخذني إلى أوقات يغمرني فيها النور، فأغتسل منه، وأشرب منـه، وأرتديـه ثوباً يسترني، لكن هـذا الوقت لا يدوم. فمـن أين أعرف أن هـذه هي البشارة؟ تذكـرتٌ قول النِفّري: (وقال لي: إذا لم ترني، فلا تفارق اسمـي).. وهنا أدركتُ معنى استواء المنـع والعطاء، فلم يفارق اسمه تعالى لساني...

كانـت خلوتي أعلـى البيت الذي أسكنـه، وكانت أصـوات الناس تأتيني علـى غـير رغبة مني، ولم أستطـع منعها من الوصـول إلى خلوتي ووحدتي،

مما يأخذني إلى منطقة يسكنها بعض الأحرار من القوم، وقد صرتُ من المماليك الذين يتخذون العبودية للّه وحده دون غيره، ولا تلوثه رسوم أو علائق. فالمماليك في الجنة، والأحرار في النار، هكذا تعلمتُ من شيخي حدود العبودية للّه وحده، فلا أشاهد غير اللّه تعالى، ولا ينشغل قلبي بغير اللّه تعالى، ولا تأخذ طرفة عيني شيئاً من لهو الدنيا وملذاتها، فتخرجني من جُبِّ المواجد إلى عالم الأشياء والأغيار، والتي قد نسيتها تماماً منذ زمن لا أدري متى كان، ملتزماً بزمن سوف يكون. فاتخذتُ قراري بالرحيل إلى صحراء لا يسكنها بشراً، ولا يُرى فيها ما يشغل القلب والروح عن العبادة.

-37-

كان القـرار إذن هـو الفرار من عبـق الدنيا وملذاتها، والتـي أراها من حـولي في عيون سـكان القرية التـي أسكن فيهـا، فتأخذ مني جهـداً كبيراً كـي أتجاوزهـا قـراراً حكيماً، حـررني من ذلـك الوهم، رغم مـا اعتاضه السـكان عني من سلوك وضعني بينهم كرجل طيب ينشد الوحدة، ولا ينطق إلا بالقـول الثابـت من القرآن والسنـة، وريادة المسجـد في أوقات الصلاة، والاختفـاء فيما بينها. فأخـذتُ عصاتي وبردتي وزِقّ ماءٍ هم كل ممتلكاتي، وخرجت بعد صلاة فجر أحد الأيام أنشد الصحراء.

لم يتبـق في عقلـي من علم الدنيـا إلا ما تيسر من ومضـات تأتيني كلما أستدعيهـا، ربما لأضع عقلي قيد الاختبار دوماً، فلا يشرد عني، ولا يجرّني إليـه. تبدو الصحراء في عينـي ككون منفصل عن كوني الذي اعتادت عيني على رؤيته في خلوتي القديمة. أتأمل صفحة السماء وتلاقيها في انحناءة على تلك الصحراء المترامية، فتهمـس لها بكلمات لا أسمعها، وإن كنت أحسّها، فاللغـة وإن تعددت فهي تعبير عما يجيش في الصدر من انفعالات، وما تراه العـين مـن ظواهر. تغوص قدمي في بؤرة مـن الرمال الساخنـة، فأتوقف، وأنزعهـا، بينمـا تتجول عيني في إبداع هذا المخلـوق الأصفر أمامي، وأسأل نفسي: ما بال الأكوان الأخرى التي لا نراها؟ أهي بنفس تلك الروعة؟

وكانـت نظريات الثقوب الدودية وهـي آخر ما وصل إليه العلم الحديث، قـد أنتجتـه عقولٌ جبـارة، حـرّة، ملتزمة بما يمليـه عليها الخيـال والفكر

السليـم، بعد أن تحررت هـذه العقول من عبودية الخالـق، رغم أنها تبحث في إبداعاتـه، وتوقفتُ عند قدرة الخالق في طبيعة هـذه الثقوب التي تخرج عن قوانين الفيزياء، ورصدتُ ثلاث ظواهر لا تجري فيها تلك القوانين التي اكتشفوهـا حتى الآن وهي: أُفق الحـدث، وحلقة "كير"، وجسر "آينشتاين-روزن". ولكننـي لم أشـأ أن أتبحر في هذا العلـم، ولا تلك الظواهر الثلاث، سوى أنني أريد أن أرى كيف تخطى العارفون بالله هذه المستحيلات الثلاث، واستطاعـوا الولوج إلى عوالم أخرى لا تجري فيهـا قوانين الفيزياء دون أن يشغلوا عقولهم بكيف، ولماذا، وماذا رأوا، وكيف عادوا.

يقـول العلـم الحديـث: إذا أردتَ أن تعبر الكـون، فعليـك أن تعبر هذه الظواهر الثلاث، وهـذا مستحيل تماماً، أو عليك أن تحني الزمكان، فيفتح لـك كونـاً جديداً، وهذا أمرٌ موكـول على الله - عز وجل - ابتسمتُ ابتسامة عريضـة، وأنـا أعـبر الطريـق إلى ذلـك المجهول الـذي اخترتـه طواعية، واستكنـتُ لهذا التدريب العقلي، وأنا قابض تمامـاً على عقلي، طالما درّبني شيخـي على هذه التماريـن، وهي سبحات نورانية للعقـل، دون أن ينحرف، أو يضـل، أو وهـو محصور بين القلب وبين الـروح، وفي هذا يقول النفري: يا عبد.. إذا أقمتَ عندي، حُزْتَ الكونية (أي تجاوزت الأكوان). فما أدراني.. وقـد سبقني النفري في حيازة الكونية، وأسـأل نفسي كيف استطاع النِفّري أن يحنـي هذا الكون ليعبر أكوانـاً أخرى.. آه.. ما زلـتُ أحتاج إلى شيخي. الطريق طويل، والعقـل منشغلٌ بذلك التدريب الغريب، تأخذني قدماي إلى عـالم شديـد الخصوصيـة، يمكنني فيه حنّـي الكون لأعبر مثـل من عبروا

قبلـي. آفة العقل أنه يفكّر في اتجاه واحد، وإذا تركتَ له العنان فلن تستطيع السيطـرة عليـه.. (إذا أقمتَ عنـدي..) هو المفتاح السحـري المُعجز لحنّي الكـون كما قال النفّـري.. وها أنا أتوجه إليه بـكل جوارحي، ربما يسمح لي بالإقامة بقربه.. ألا لعنة الله على العقل وتفكيره الناقص في فهم الكون.

-38-

لم يكـن ذلك الجدل الذي أحدثه عقلي معي بالأمس مُعدّاً له سلفاً، فقد خـرج مني لتدريب عقلي على الطاعة، والتأمـل، والإدراك، والقبول بأن كل صـور الطبيعة وقوانينها ما هــي إلا من مُحْدثات الخالـق، وربما ما بقي في عقلـي من مخزونـات العلم التـي أبتّ أن تخـرج منه، واستقـرتْ في قاعه، تحسبـاً لما سيجـري عليه من نِعَمْ، فيتآلف معهـا ولا يختلف، يقترب بها من الحق ولا يبتعد عنه، يؤمن بها ولا يعترض، ويجعل من تلك النِعَمْ دليلاً على صحــة سلوكه، ويُثبت بمخزوناته العلمية ما يعجز عن شرحه لأقواله الملغزة والمكثّفــة. صرفـتُ عقلي عـن الخوض في تلـك الجدليات حينمـا شاهدت أســداً يطارد أرنباً صغيراً. فوقفت حائراً مـن مراوغة الأرنب، وقدرته على الانفلات من مخالب الأســد كلما يقترب منه، وحينما أحسستُ بقرب وقوع الأرنــب، أشرتُ بعصاتــي إلى الأسد كمحاولة لإنقاذ الأرنب، رغم خوفي من وقوعــي بين براثنه بدلاً منــه، إلا أن الأسد توقف فجأة حين نظر إلي وهرول بعيداً في إشارة لزهده مـن ضآلة الأرنب وضآلتي، وكانت المسافة بيننا غير بعيدة، لكنه القدر الذي أنقذنا، واندفع الأرنب بأقصى سرعته مبتعداً عني. فسألــتُ تفسي: أهو أسد الشيخ الوهمي؟ أهي إشارة لي؟ أم لغز؟ أم تحذير من الطريق؟ فهتفتُ: أين أنت يا شيخي؟

لم يمض سوى وقت قصير من ذلك المشهد إلا وقد ظهر لي شيخي جلياً، رأيــتُ عصاه في ظلها الطويل يسبق خطواتي التي تغوص في الرمال، وما أن اقترب مني إلا وعصاه تهز كتفي، ويمررها على رأسي، وهو يقول:

- ما الذي يدور في هذا العقل يا ولدي؟ ما لك وذلك العلم الظاهر الذي قد يكون حقيقياً، وقد يكون زائفاً، بهتني رأيه في العلم، وكنتُ أظنه يتفق معي. فقلت له:

- كيف عرفتَ يا مولاي ما يدور في عقلي، ولم أبح به لأي كائن سوى نفسي؟ قال:

- رأيتك قد انشغلتَ بك إليك، وانحرفتَ عن الطريق، وانطفأتْ في قلبك شمعة الوجد، ولا ألومك يا ولدي.. فقط هذا العلم الدنيوي سيظهر لك، وستظهره في غير أوقات الجلوة، عندما تخرج بعد الفقد، مستنيراً بما يكفي لتردّ عنك بما أنت فيه.. اثبت يا ولدي، ثبّتك الله بما أنت أهلٌ له، وليس بما أنت أهلٌ لسواه. من الآن ستكون وحدك لا غير، وستضربَ بك الصحراء وحشتها، فكنْ أنت لا نفسك، روحك لا عقلك، مَحْوك لا إثباتك. فسألته:

- ألهذا أرسلت لي الأسد والأرنب كي يصرفاني عن عقلي؟ كانت ابتسامته وضّاءة، وكلماته مكثفة حين قال لي:

- الخوف لا يليق بالعارف، ما دام قلبه كاشف. فقلتُ له:

- ولكنني لم أخف يا سيدي. فقال:

- لمَ ناديتني إذن؟ قلتُ:

- كي آنس بك، وبصحبتك يا سيدي، فقد شعرتُ بالوحدة التي تستدعي عقلي قبل قلبي أحياناً، قال لي بحدة:

- ستكون وحدك من الآن، فتدرّب على وحدتك، ولا تجعلها تشغلك عمّا أنت مقبل عليه. فسألته وفي سؤالي رجاء وأمل:

- وأنت يا مولاي.. أين موقعك مني؟ قال:

- سأكـونُ مثلك، غائبـاً، فانياً، واحداً لواحد ليسـ كمثله شيء. وجدتُ نفســي وحيداً مرة أخرى بعـد أن غمرني شيخي بتلـك اللحظات المطمئنة، فأسكنتْ قلبي، وزال خوفي، وازداد يقيني.

أسرعـتُ بخطواتــي، تسبقني عصاتــي لتتحسس موضعــاً لقدمي، حتى لاحــت أمام عيني من بعيد أعمدة صخرية من صنع بشر. تحسستُ طريقي إليهــا، وأنا ألهج بالدعاء، يحدوني الأمل والرجاء أن تكون هذه الأعمدة هي محطتي الأخيرة.

(5)
المقام

لم تكن إقامتي الجديدة جوار أحد معابد الأقدمين من اختياري، لكنني وجدتني مندفعاً إليه، دون إدراك مني أن يكون هذا المكان قد ساقه لي شيخي، فقد كان يدفعني دوما للرحيل بعيداً عنه، وما أن استقر مقامي خلف المعبد من الجنوب حيث السهل المنخفض والرمل الناعم إلا وصورته تمثّلت في عينيّ يبتسم لي، ويشيح بعصاه بعيداً حيث المعبد، كإشارة منه ألا أتأثر بما يحوجه هذا المعبد من شِركٍ. لم يمض وقتٌ طويل إلا وجاءتني إشارة أخرى منه يطلب مني أن أعود إليه مرة أخرى على غير عادته. تكررت الإشارة بإلحاح لم أعهده عليه، كان وجهه شاحباً، وعمامته مفكوكة، وعيناه غائرتين، كأنه لم ينم منذ سنين. تركتُ خيمتي كما هي، وأحثثت الخطى عائداً إليه، يسبقني ذلك الأرنب العجيب الذي اتبعني منذ مفارقتي الشيخ وأنا أتوجس خيفة حقيقية قد ألّمت بي، وشعور غريب بأني لن ألقاه مرة أخرى.

وصلت متأخراً قليلاً، واجهت جموعاً من بشر لم أشاهدهم من قبل، ولم أسمع لهجاتهم تلك، ولم أفهمها، كانت عيونهم تنظر إلى بارتياب. ربما شفعت لي هيئتي الجديدة التي تقترب من هيئة الشيخ همّام في المرور بينهم في طريقي إلى خيمته. من بعيد لمحت الأسد يرتكز بقدميه الأماميتين شامخاً كما رأيته من قبل، لكني وجدته هزيلاً حزيناً، لم ينحِّ عينيه عن الخيمة. بينما استقر الأرنب بين قدميه الممددتين كأبي الهول.

أشرتُ إليـه بعصاتي، فهزّ رأسه، ثم دلفت حيث الشيخ ممدداً وعليه حِرامٌ من الصوف كان يلتحف به في ليالي الشتاء. حين أردتً أن أكشف عن وجهه تحركتْ عصاتـي، وقد انغرست في الرمل ممسكة بيدي، تحولتُ بعينيَّ عنه متجهاً إلى السماء أدعو له، ثم أرسلت إليه همسة عتاب. خرجتُ أنتظر تلك اللحظة الفارقة التي سيوارى فيها الثرى.

مـا أن انتهت مراسم الغُسْل لجثمان الشيخ همّام، إلا وتخاطف المريدون مـاء الغُسْـل للتبرك به في مشهـد لم يكن مألوفـاً لي، ولم أشاهده من قبل، حتى لكأنني تأففت منه، ربما لبقية من عقل تجريبي ما زال راسخاً في وعيي اليقظ. تعـثّرتْ قدماي بعصا الشيخ التي أشار بهـا يوماً لذلك الأسد الذي أثار رعبـي حينها، فتلقفتها. استأذنـتُ أن أرى وجهه كنظرة أخيرة قبل أن يذهب بعيدا، وقلتُ لمن غسّله بعد أن ألبسه الدَرَج الأول، وقبل أن يكمل تكفينه:

- أنـا كنـت أحد مريـدي الشيـخ، وأعطاني هـذه، وأشرتُ لـه بالعصا الصغيرة. فأذنَ لي على مضض.. وجدتُ وجه الشيخ مبتسماً كعادته، ولأول وهلـة شعـرتُ بقشعريرة تمتـد لنافخي المنـوّم مغناطيسياً وأنـا أقترب من عينيه المثلتين، لفحتني ريح طيبة هبّت من فمه حينما اقتربتُ أكثر منه، لم أعرف كيف وصلت هذه الريح إلى قلبي الذي هدأت دقاته فجأة، فابتسمتُ، وأومأتُ، ثم سمعني من يقف جواري من مريديه وأنا أقول:

- حاضر.

وازدادت ابتسامتي، ثـم ضحكتُ، مما أثار حفيظة أحد المريدين، فقال لي بغضب:

- احتشـم يا رجل.. فأنـت في حضرة جلال الموت. فـازدادت ضحكتي، وخرجـت من معية الشيخ إلى الفضاء العريض الذي يمتد حيث المقام الذي شـرع المريـدون في بنائه على عجـل ليلحقوا به جثمان الشيـخ. تعلقت عينا ذلك المريد تراقب خطواتي من بعيد، بينما عصا الشيخ تحاول أن تغوص في الرمل لولا يدي القابضة عليها بشدة تحول دون ذلك.

الطريـق الممتد من خلوة الرجـل إلى مقابر (قبيلة أولاد علي) تم تزيينه بسعـف النخيـل والبيـارق الحمـراء والخضـراء. خرجـت جمـوع القبائل المتاخمة لـوداع الشيخ الجليل، بينما يزداد قـرّع الدفوف من حلقات الذِكْر التـي انتشرت على الطريق الرملي الذي يشـق طودين من الجبال المترامية الأطـراف لتصنع من مشهـد الجنازة صورة غير مألوفـة لي. وكلما اقترب الجثمـان من إحـدى القبائل التي تتمايـز عن بعضها بلـون العمائم أعلنت ولاءها وعهدها وانتسابها لطريق الشيخ، وطريقته. ساد الصمت فجأة حين توقفـتْ الجنازة، تسمّرت أقدام حاملي النعش، فهتف أحدهم.. الله أكبر.. مِش هنا يا مولانـا.. لثة بدري على المقام. استدارت كعوب الحاملين للنعش بينمـا ظلت أياديهـم قابضة بشدة عليه مخافة أن يفـرّ من بين أيديهم بعد أن خّـف وزنه، وسـار كريشة عابـرة تتجه إلى طريق آخـر ربما إلى محيط آخر غير هذا الكون. أسرعتُ الخطى ناحيتي حتى وقف النعش تحت قدميّ وتسمّـر، فأقامـوا حلقة عظيمـة من الذِكْـر، حتى فطن أحـد المريدين إلى العصا التي في يدي، فجذبها ووضعها باعتناء جوار الجثمان، فرجع النعش مرة أخرى لكن إلى اتجاه جديد ينتهي إلى ذؤابة أحد جبال المنطقة، فغطت عمائم القبائل صخور الجبل.

لقد توحّد مقام الشيخ مع ذؤابة الجبل، حين ينظر إليهما الرائي فلا يستطيع الفصل بينهما، ربما أراد الشيخ همّام أن يشقَّ على مريديه الصعود إليه، فيخدشوا وحدته، وربما ليقترب من نقطة الانطلاق إلى السماء البعيدة. لقد أودعني سراً، وأودعته رجاءاك. ولم يكن السر والرجاء هما ما خرجت بهما منه، ولكنه العلم الذي بدأ في الظهور على روحي التي بدأت تأخذ مساراً آخراً عبر روح الرجل الذي أودعني سره منذ قليل. لقد بدأتْ لغتي تنحى بعيداً عن المألوف من الكلمات الدارجة في حياتي اليومية السابقة إلى لغة أخرى أقرب إلى اللغة الرقمية الملغِزة، أو اللغة السيميائي التي كانت سائدة في الزمن الأول للبشرية. لم يعد لي وجودٌ في هذا المكان الذي جمعني يوماً ما بذلك الرجل الطيب. ترحّمتُ عليه ثم استدرتُ لأعود من حيث جئت. سمعت من ينادي على من خلقي حتى لحقني:

– مولانا . . . هل كنت من مريدي الشيخ؟، فأشرت إليه بالإيجاب. فقال:

– هل كنت تعرفه حقاً؟ فرفعت عاصياي بالنفي. فاستغرب الرجل من إشاراتيَّ، وظن أنني أخرس، أو صاحب أحوال. فأشار لي بإشارة فهمت منها أنني أبدو له غبياً. فابتسمت، وتركته في حيرته، وخرجتُ من صحراء شيخي إلى صحراء ذاتي، ليس لدي رغبة في التحدث مع البشر، أو حتى مع ذاتي المفعمة بالأسى لفقدانها الشيخ.

الطريق الممتد أمام عيني في لحظة الغروب تحوّل في غفلة مني إلى حدائق مُدّهامة من النخيل الذي غطّى سماء الصحراء كلها. فركتُ عيني،

ثم عاودتُ البحلقة في الرمال الصفراء التي كنتُ أراها منذ قليل على مدى نظري، فلم أر سوى ذلك النخيل الملتصق فوق الكثبان الرملية كأنه أمواج من بحر عميق الخضرة، تتلألأ على رؤوسه أفواج من الطيور التي عادت بطاناً، وتصدر ألحاناً في سعادة غامرة. هتفت من داخلي: اللّه اللّه يا سيدنا. فأحسست بيدٍ تغمزني بلطف، وهاتف يقول لي:

- لا تتوقف كثيراً. فما زال الطريق طويلاً، ووراؤك الكثيرون من المريدين والمحتفين. فنظرت إلى من يحدثني، فوجدته ذلك المريد الذي أمرني بالتأدب في حضرة الشيخ. فقلت له:

- هل تشاهد ما أشاهده؟ فقال لي بتعجب:

- ما الذي تشاهده في تلك الصحراء الجافة؟ فقلت له:

- ما كل هذا النخيل؟ فقال لي باستغراب شديد:

- أترى نخيلاً يا هذا؟ أين هو إذن؟ آه.. فهمت فهمت.. أغمض عينيك قليلاً ثم افتحهما ستجد صحراءك كما هي. قاسية. جافة. ملتهبة حتى في غبشة الليل. فقلت له وأنا مندهش مما قاله بعد أن أغمضت عيني وفتحتهما كما قال:

- هل هذا الأمر يتعلق بالشيخ همّام؟ فقال لي بحدّة:

- من هو الشيخ همّام هذا؟ قلت له:

- الذي تم دفنه منذ عدة ساعات، وكنت أنت شاهداً على غُسله.. أنسيت؟ فقال:

- يا لك من شقي.. كنّا في مولده وليس في جنازته.. وليس اسمه همّاماً. بل اسمه مولانا نصر الدين. فقلت له:

- والمشهد، والمقام، والطريق، والجبل، وأنت، وحديثك معي عند رأس الشيخ.. كل هذا كان وهماً؟ أشاح بيده التي ما زالت حاملة سعفة النخيل، ومسح على جبهته لي.. كأنني قد فقدت الذاكرة، ثم سبقني إلى حيث يمضي المريدون والمحترفون.

(6)
تجليات الفتى

لقـد تحـررتْ روحـي إذن من علائـق الدنيـا، وصرتُ مـع السالكين في الطريـق. أبحرتُ في مركب بلا ألواح أو شـراع، أخذتني بعيداً نحو سماء لا حدود لها، وقد انقطع عني الرجاء الذي في الصحو بلا فرق يجمعني.. وما جدوى الرجاء الذي أبتغيه وأنا في حالة المحو من الإثبات، أبحر وحيداً لرجاءِ جمّعٍ لا يقطعه سوى لحظات صحو تنتابني كلما أشرب من فيض الملكوت نور اليقين. أتذكر مقولة الشبلي (عبد شرب، فأزداد صحواً ثم غاب..) الغياب ابتلاء والحضور اشتهاء، وبين الغياب والحضور يدفعني البقاء نحو الفناء، فـلا الغياب يـردّني إلى الارتياب، ولا الحضـور يدفعنـي إلى الفناء، فأظل متعلقـاً بين بين، يحدوني الأمل في اللقـاء المرتجى. فأعود لأشرب من فيض الـبركات، فتنمحي منـي الذكريات، حيـث لا وجود للموجـودات، ولا مكان لقـدم، ولا امتداد لزمن. توقفتْ ساعتي البيولوجية، فلم أعد أشعر بظمأ أو سغب. تجتاحني بوارق من نور مصفّى يغمرني بالفرح والرضا.

هل هذا هو حال فقدٍ إذن.. أم حال وجدٍ متأخر؟

ومـا جـدوى السؤال.. وأنـا لا أعلم حالي عمّـا إذا كان وجـدّاً أم فقْداً، بقـاءاك أم فنـاءاً، إثباتاً أم محـواً، صحواً أم سُكْراً، حيـاة أم موتاً؟ أتقلّب مـن حـال إلى حال، أدخل في فضـاءات لم تسّعَ روحي إليهـا، يتوقف زمني، فـلا أدري أن كنـت مُقْدماً أم مُدْبراً، لا ينطـق لساني مخافة الزلل، أو حتى

لا يعرف لساني كيف يكون الزلل، صفحة بيضاء وُلدتَ من جديد في روحي. فلم يكن لي خيار أن أرتاد الصحراء وحدي، تماماً كما قالها لي شيخي مرة حين سألته عن اختياره للصحراء مكاناً لتأملاته وعبادته، فقال لي:

ـ قال مولانا النفّري في كتابه المواقف والمخاطبات: (وقال لي: اُخرج إلى البرية الفارغة، واقعد وحدك حتى أراك، فإني إذا رأيتك عرجتُ بك من الأرض إلى السماء ولم أحتجب عنك). فقررت الإبحار في الصحراء، وما أكثرها لدينا.

الإبحار في الصحراء وحيداً يجلو القلب بجلاء اليقين، ويصفو العقل بصفاء السماء في ليلها، حيث الأحدية في معناها الظاهر والخفي، لا ظل ولا رسوم. أبللُ شفتاي ببعض ماءٍ. الطريق ممتد لا ينتهي، كلما أقتربُ أبتعد أكثر. تبدو الكثبان الرملية كجدران تحمل في طياتها الأمل في الوصول. السراب الكاذب يجذبني إلى الناشئ، تحتويني حالة من الحب الخالص تلهب مشاعري تجاه الغياب الذي أرجوه في هذا الفضاء العجيب، ليفيض بي إلى الحضور الدائم. تكتمل الصورة في مخيلتي كلما توغلت أكثر. لا شيء غير الصمت الذي أبتغيه. فأجملُ ما في الصمت أنك تصغي إليه، لكن لا تسمعُ منه. تأخذني الرغبة أن أتقيأ بعضاً من صحو، حتى يصير كمال الرغبة عندي لحظة محو، فأصيرُ كياناً ممتدا، يخرج منه كل الأنداد.. نداً نـدا، أبني بينهمو وبين القلبِ سدّا، لكني بين الصحو وبين المحو أكابد كبْدا، أن يأخذني الوجد أسيراً فوق الحالين.

بين الصحو وبين المحو أسترق السمع، لكني لا أسمع شيئاً، بينما تمر أمام

عينــي ومضات من نور تنبِّهني إلى بدايات الطريق نحو مقام الليسية (ليس هناك ســوى الله). فجاءني صوت خفيض من شيخــي يأتيني ضارباً صمت الصحراء، يهمس، حتى لا يُخرجني من كينونتي وحالي.. فسألني مبتسماً:

- أرى عصاك قد استطالت حتى علتْ رأسك. هل هي كذلك أم أنت من قَصُرتَ عليها حتى استطالت هي. فابتسمتُ، وقلت له:

- كلانا أخذ من نور الحق تعالى، ولأنها جماد لا يخطئ، فاستطالت..

قال لي:

- أكمل.

- أنت تعرف الباقي.. فلمَ الإكمال إذن؟ قال:

- لمــاذا انتظرت كل هــذه السنين يا ولدي، حتى تخطيــتَ الخمسين من عمرك؟ قلت:

-العمرُ لا يقاس إلا بلحظة القرب من الحق. فسألني:

- وهل عرفتَ الطريق حقاً؟ قلت:

- الآن اسلكه، بعد أن تركت ورائي الدنيا. فسألني:

- فهل تخلصتَ من الدنيا حقاً؟ قلت:

- أخذني الحضور حتى لكأنني لم أولد بعد. سألني:

- هل نسيت أسمك إذن؟ قلت:

- ماذا تعني الأسماء في حضرة الملكوت. فسألني:

- قال تعالى (وعلّمَ آدُمُ الأسماء كلُّها). ألستَ من بني آدم؟ قلت:

- من تجلى الحق له انمحت عنه الأسماء كلها، فلا يبقى له إلا هو.

سألني:

- وهل تجلّى لك الحق حقاً؟ قلت:

- أروم لوقْع نوره في روحي. ولا أبتغي لغير ذلك سبيلا ...

فسمعته يردد في صوت خفيض (اللهم هوّن عليه لحظة الحضور، واغمره بفيض نورك الأبدي، واجعله عبداً ربانياً، وأفض عليه من بركاتك العلا والتقوى والكمال..) فما وعيتُ، ولا سمعتُ، ولا أدركتُ، ولا أمسيتُ إلا ورأيتُ كُراتٍ من نور مصفًى تغمرني وتأخذني نحو الفضاء العريض.

لقد تبدل الحال بيني وبين شيخي. لقد سألني، وأجبته. ولأول مرة أتبادل مكان الشيخ، وانتابني إحساس غريب بأنني أسير أمامه، وليس خلفه، وأن كلماتي أصبحت ملغزة دون أن أدري، تقترب من لغة القوم الذين ساروا في الطريق قبلي، أفزعني ما صرت إليه من حال يغيب فيه العقل، وتحل مكانه اللغة التي يعجز العقل عن الوصول إلى مكنونها، وما زال في نفسي بعضٌ من أمل في أن أستعيد مكانة الشيخ لي، ليحمل عني هذا القلق من الآتي.. وهو ما أشعرني بجلال الرهبة والخوف معاً في تحمل الطريق وحدي. لكنه القدر الذي ضرب في روحي الخائنتين -الشمس والصحراء- فلم أعد أشعر بإنسانيتي من ضعف وقوة، وشبع وجوع، وغضب وسماح، وحياة وموت، ولا بوقتي الذي انقطع مني، فصرتُ فانياً في اللاوقت، واللامكان، واللابشرية، إنها تلك اللحظات الآسرة التي أعيشها ولِهاً، متيّماً، حاضراً، مستكيناً، مفارقاً، مجموعاً، لا يغيب عني النور ولا ينقطع، ولا أرى نفسي إلا في حضرة الملكوت منعّمة، راضية، ملهمة، مطمئنة، تلبث فيها الروح ولا تغادرها، كأنهما أصبحتا كياناً واحداً لا كيانين لا يفترقان بموت، أو جنون.

استقر بي الحال في خيمتي التي نصبتها في كبد الصحراء، بالقرب من معبد فرعوني قديم، دلّني حدسي عليه، كما دلّني على وجود بئر ماء فيه لم يجف. لم يبق من المعبد إلا أعمدته وبعض حوائط متهالكة عليها نقوش من الكتابة المصرية القديمة، وقد أهملته وزارة الآثار لبعده عن العمران، ولعدم أهميته في دراسة الحُقَبْ المصرية القديمة. لم يعنيني ذلك المعبد، ولا ما يرصده من آثار حضارة غابرة، فقط بحثتُ فيه عن موقع البئر حتى وجدته، وبعد لأي استخرجتُ الماء منه. لقد أخرجني هذا الجهد الشديد في إظهار البئر عن كينونتي الجديدة، لكن الإنسان لا يستطيع العيش بدون ماء، أما الطعام فيمكن تدبيره من موجودات الصحراء، وقد هداني رب العزة على الماء، فلن يحرمني من عطائه من الطعام، حتى يمكنني من مجابهة الحياة الجديدة، أواصل فيها تأملاتي وصلاتي وعبادتي.

الشمس والصحراء توأمان يتبادلان شرورهما مع كل عابر سبيل لهما دون زاد أو غطاء، فالشمس تنحني على رمال الصحراء، فتبثها لوعة وسخونة، فتتوهج حبّات الرمال بسبابات يظنها الظمآن ماء، والصحراء بضنينها لا تُنبت إلا كل ما هو غريب وعجيب من نباتها، وحشراتها، وحيواناتها. والساكن فيهما يتجنب كل ما ينتجانه من شظف كي تدوم له الحياة التي ارتضاها لنفسه التي ما زالت فيها بعض من علائق الدنيا، ووشائج الخلق. الهروب من الحياة الزائلة هي كل مأربي ورغبتي في الانفراد بروحي فقط دون جسدي كي أظل قيد الوجْد، ربما أصل يوماً إلى مقام (الليسية) التي وصلها يوماً مولانا أبو يزيد البسطامي، أو أتوحد مع الاغتراب الذاتي لأقف

في الموقف الأسن كما وقف فيه يوماً مولانا النِفّري. هذا مرامات أتوق إليها، ولم أجد شيخي معي ليرشدني إليها كما عوّدني.

تجولت في المعبد قبل هبوط المساء بقليل، وكم كانت دهشتي من تلك الرسوم الكثيرة التي تعبّر عن لغة أجهلها، لكنها شفيفة ودقيقة. وفهمتُ منها كيف كان الخشوع أمام تلك الآلهة المصرية قبل أن يدخلها التوحيد. يا لها من جلال الوقفة والانحناءة والتضرع، وسألتُ نفسي: هل عرف هؤلاء الوثنيون الخشوع؟ هل عاشوا لحظات التجلي كما عاشها العارفون بالله ممن آمنوا بالتوحيد. أسئلة.. أحتاج إلى شيخي كي يجيبني عنها، لكنني آثرت الوحدة والخلاء كنصيحة شيخي، وعلى أن أتدبر وحدي ما يمر في عقلي من أسئلة. غابت الشمس، فأظلم المعبد أثناء انشغالي بالكتابة والرسومات المحفورة على الأعمدة هنيه، فخفتُ على نفسي من مغبّة التمادي في مجرّد التفكير فيما وراء تلك الكتابة، فخرجتُ منه مسرعاً، وقررتُ ألا أدخله مرة أخرى إلا لجلب الماء.

مرّتْ أيام لا أعرف عددها، ولم أحصها، حتى نفد الزاد، خرجتُ في معية الرزاق أبحث عن طعام، تصاحبني العصا الطويلة هدية الشيخ، كان الجو صافياً، تخلو السماء من ريح، زرعتُ علامات للطريق حتى يمكنني العودة إلى خيمتي، أخذتُ في جمع بعض الأعشاب الخضراء التي تصلح للطعام. لم يكن البحث سهلاً فمعظم الأعشاب تتشابه في طبيعتها الصحراوية، حتى شاهدتُ على بعد أرنباً برياً ـ ربما ذلك الأرنب الذي أنقذته من الأسد ـ تمنيتُ أن أصيده، لكن هيهات، فأنا لا أحمل أي أدوات للصيد، كما أنه

قـد أصابني الوهن، فأشرتُ إليه بعصاتي، ربمـا لأُعْلمه أنني في حاجة إليه لطعامـي، توقّف الأرنب ونظر إلى من بعيد ليشاهد إنساناً ربما لأول مرة في حياتـه، فاقترب مني وأخذ يتمسح في العصا، والغريب أنـه لم يهرب كأنه وجـد من يؤنس وحدته في هذه الصحراء المترامية، فسألته: أين رفقاؤك؟ أم أنـك قد ضللت الطريق، فعبس بأنفـه، فاستأنستُ به، وقـرّرت الموافقة على مصاحبتي حتى يعثر على عائلته، وجلبتُ له ما يفوته مثلي. وهمستُ له ضاحـكاً (تيج تصيده يصيدك)، ما لبث أن أتت له زوجته مسرعة تتحسس مـا حدث له من ذلك الكائـن الغريب عليهما، وما أن أشـرتَ إليها بالعصا حتـى استكانت وتمسّحـت في زوجها في تناغـم ووُد.. فهتفـتُ: سبحانك يا ربي.. ألّفت بين قلوب الحيوانات، كما ألّفت بين قلوب البشر..

الليـل في الصحراء له سحـر خاص، لا يألفه إلا من عاش فيه. استقبلتُ النجـوم بتلألئها، وأغمضتُ عيني كي أغوص فيها. شغلني برهة التأمل في مخلوقات الخالق، والإمعان فيها عن العبادة، فسمعتُ هاتفاً من شيخي يقول:

- يـا ولـدي.. تذكّـر مقولة النِفّري (وقـال لي: يا عـارف.. أرى عندك حكمتـي، ولا أرى عندك خشيتي، أهدئت بي) فانطلقتُ في الصحراء أجري علـى غير هدى وأصـرخ.. يا ويلي.. يا ويلـي.. وقع المحظـور، ووقعتُ فيه.. فاغفـر لي يـا ربي زلتـي.. طوتني الصحـراء في بطنها بعيـداً عن خيمتي، ولم أدر بـي إلا في صباح الغد الذي حل بضوءه على جسدي، ورأيتُ الأرنبين يحملان عصاتي ويضعانها بجواري.

هكـذا شعـرتُ أنني قد مررتُ بحالـة وجْد، أعقبها فقْـد، وتيه، وشهود،

وسُكْـر، ومحو، وفنـاء، ورضا، وقبـول، وأنه قد جرى علـى روحي ما يجري علـى روح المحبين في الله، والفانين فيه من شفافيـة، وعمق، وإدراك، ورؤى مغايـرة لما يجري في الطبيعة من عادات، ومظاهـر. لم أقو على مجابهة ما يعتريـني من إدراك لحالتي التي أحالت روحي إلى موجة تسبح في الفضاء، حتـى لكأنني شاهدتُ الأرنبين وهما يلهوان بالعصا أمام الخيمة، بينما كان المعبـد أو ما بقي منه ما يـزال رابضاً في عمق الصحـراء يكتنفه الغموض، ويكتـم سر العبـد الذي لجأ بجـواره في لحظة فقـده وتجلياتـه. لم أستطع إخـراج ذلـك المعبد العتيق من هـذا المشهد، ولا أربط أسـراره بما يعتريني من وجْد، فربما قد شاهد ذلك المعبد حالات تجلّي من نوع ما من الوحدانية التي جرت أحداثها في زمنه العتيق.

انتصف النهار خارج الخيمة واشتد لهيب الشمس على الرمال، ولم يكن معـي ما يبـلّ ريقي من ماء، مع صـراخ الأرنبين من شـدة الظمأ، ولاحظتُ ندمهما على مصاحبتي. فخرجتُ قاصداً بئر المعبد لأملأ زق الماء، فسمعتُ جَلَبـة تأتـي من الداخـل، وشاهدتُ أناسـاً في لباس علماء الآثـار بقبعاتهم الصفراء، يتجادلون بلغتهم، فاقتربتُ منهم، وقلتُ:

- السلام عليكم يا سادة.

ومـا أن ألقيت عليهم السلام، وتلاقـت عيونهم بهيئتي، ووجدوا أمامهم شيخـاً كبيراً تكاد تبين ملامح وجهه مـن كثافة لحيته، بينما تخرج عصاته لتختـرق الفضاء الذي يعلـو رأسه.. كأنه خرج تواً مـن كادر فيلم سينمائي قديم بـرع المخرج في إبراز هيئته المزرية. مما جعل هـؤلاء السادة يرتعبون

مـن هول ما رأوا، وقـد رأيتُ في أعينهـم الدهشة والخوف معـاً، حتى أنني كـررتُ عليهـم (السـلام عليكم) مـرة أخرى، حتـى أُخرِجهم مـن عالمهم الافتراضـي الذي دخلـوه بغتة إلى دنيا الواقع. سمعـتُ مترجمتهم المصري المصاحب لهم يتحدث لهم بلغتهم:

- لا تخافوا.. إنه شيخ كبير اعتاد العيش في تلك الصحراء، وقد شاهده الكثيرون ممن يرتادون تلك الصحراء. ثم وجّه خطابه لي:

- أنا (إبراهيم فؤاد) المترجم والمعيّن لهم من هيئة الآثار - اسمح لي أن أسألك، من أين أتيت يا مولانا، ولم نر لك خيمة ولا أثراً في تلك المنطقة.

فقلت له:

- في الجانب الغربي من المعبد، خلف التل المقابل لها. قال لي:

- ولكننا لم نشاهد أية خيمة هناك، وقد مررنا خلف التل منذ برهة، ولم نجد أثراً لها. فقلت له:

- كلٌّ عليـم بأسراره يا بنـي. لكنني لم أبرح هذا المـكان منذ أمد بعيد، ربما غُمَّ عليكم الأمر، أو أصابتكم حرارة الشمس في عيونكم، فلم تشاهدوا الأرنبين يمرحان حولها.

فاقـترب منـي، وهمس في أذني.. هـؤلاء القـوم لا يعرفـون الأحـوال والمرامات، ولم يدركوا علمكم يا مولانا، فرفقاً بهم. فابتسمتُ، وقلت له:

- لا أبغي إخافتهم يا بني. فمن أين أتوا؟ قال:

- إنها بعثة علمية روسية جاءت لتبحث عن معبد الإلهة (إيزيس). فقلت له:

- لا إله إلا الله - عز وجل - أعادك الله من مغبّة الشرك. فقال لي:

- إنهم لا يدينون بديننا يا مولانا.. فارفق عليهم. فخاطبتهم:

- أيها السادة.. ما تبحثون عنه ليس هنا، فهو في نهاية البر الغربي من الصحراء الكبرى أما هذا المعبد فإنه يخص المعبود المصري القديم (آتون) تم بناءه في عصر دولة التوحيد التي أسّسها (أخناتون). وقد بناه الكهنة على نفس طُرُز أماكن العبادة في عهد ملوك الفراعنة الخالدين، ولكنه يختلف عنهم في عدة أشياء، وقد تلاحظون من عدم وجود مكان لقدس الأقداس، كما أن توزيع الأعمدة دائرياً لتدخل الشمس من خلاله في جميع الأركان، بل وحفروا بئر ماء داخله، وستجدون يا سادة أن العبارات المدونة على حوائط وأعمدة المعبد المتبقية لا تخرج عن كُنْها ترانيم ومناجاة للإله الواحد الأحد.. قلتُ لهم هذه الكلمات دون أن أدري بما أخاطبهم به، فقد جرت على لساني، ربما من بقية ثقافة اختزنها عقلي بما قبل الجذبة. فالتفوا حواليا بعد أن ترجم لهم مترجمتهم إبراهيم كلماتي.. وقال كبيرهم:

- وكيف عرفت؟ أتعرف الكتابة الهيروغليفية يا سيدي؟ فقلت له:

- بل علمني ربي، وفتح بصيرتي، وأدركتُ أن اختياره لي هذا المكان لا يصح أن يُعبد فيه سواه، وأنا كما تعلمون من مترجمتكم قد انقطعت لعبادة ربي اللّه الواحد الأحد. فسألني مرّة أخرى:

- وهل قُربك لربك علّمك هذا العلم؟ فقلت باقتضاب:

- **أجل. فسألني:**

- وكيف يمكننا أن نتعلم هذا العلِمَ الذي لم نصل إليه بعد؟ قلت له:

- قـال مولانـا النفّري: يـا عبـد.. إذا فصلك علمي عـن المعلومات فهو كشـوف، وإذا أوجدك علمي بالمعلومات فهو حجاب. فلم يستطع المترجم أن يترجم ما قلته، ولم يفهمه، وقال لي:

- خفـف عني الحِمْل يـا سيدي.. ومن هو النفّري هذا الذي ذكرته لهم، فأنا لا أعرفه، ولا هم؟ فقلتُ له:

- يـا ولـدي.. لا أستطيـع.. فمكنون السر ديـدن العارفـين، ولا أريد أن أعصـي ربي فيمنع عني فيضه.. أبلغهم أنه كَشْف جديد في علم الآثار يرتدّ إلى جـذور المصريين، حينما يبحثون في أساطيرهـم، تتجلّى لهم الحقيقة، وهو علم لا يدركه سوى المؤمنين بالله إيماناً لا يأتي بعده إيمان.

فسألني المترجم بعد أن ترجم لهم معنى عبارة النِفّري:

- ولماذا اخترت هذه الصحراء القاحلة مكاناً للحياة فيها؟ فقلت له:

- **قـال مولانا النِفّري:** إذا ضقتَ ذرعـاً بدواعي نفسك فاسكن إلى زوجتـك، فإن ضقـتَ فإلى أهل علمك، فإن ضقتَ فـإلى أهل معرفتك، فإن ضقتَ فسر في الأرض، فإن ضقتَ فالزم بابي، فإن ضقت فيه فاصبر ينفتح لك نوره ولا تخرج عنه على ضيق، وصابر عليه وانتظر.

لمعـت عينا إبراهيم، وتصبب عرقاً غطّى وجهه كله، ولم يستطع تحريك قدميـه، كأنهـا زُرِعت في الأرض. وعندما أراد أن يعيد مـا قلته له من قول النِفّـري أُغمـى عليه، فتحلق حواليه أفراد البعثـة، غير مصدقين بما حدث لمترجمتهـم الفتى، وأخـذوا في إفاقته. وعندمـا نظر إليهـم، لم يستطع أن يتحـدث إليهم، فناولته زق الماء، فشرب، وبلل وجهـه بالماء، واستعاد وعيه،

ثم نظر بعمق إلى العصا، وأمسك بها لتساعده على الوقوف. ثم قال موجهاً كلماته الموجزة العميقة للوفد المرافق له:

- أيهـا السادة.. لقد أسرني هذا الشيخ، ولن أستطيع الفكاك منه، لقد أصبح قدري الذي لذتُ به، ولن أستطيع خدمتكم بعد اليوم.. ولن أبرح خيمة هذا الشيخ، حتى إذا طردني منها، بل سأُصبح أرنبه الثالث، وعصاته الثانية..

فما رأيتهـم إلا وهم يرفعـون قبّعاتهم لأعلى لمترجمتهـم، ويحتضنونه، وينظـرون إلى بنظـرات التبجيـل والاحترام، وقـد أخذ أحدهـم صورة لي بعصاتـي، فأشرتُ بها إلى الكاميرا، فخرجت الصورة بيضاء كأنها صورت الفضـاء العريضـ. فبُهِـت من هـول مـا رأى، ونظـر إلى وإلى العصا وإلى الصـورة، فلم يجد تفسيراً لما حدث. فرفـع قبعته، وأسر بكلمات لإبراهيم، فهمت بعدها أنني قد سحرته.

فهمـتُ مـن الكلمـات التي أسرّهـا المترجـم لبعثته أنه سـوف يتركهم، وعليهـم تدبّر حالهم حتى يعودوا بمترجم آخر. أما هو فسيظل مرابضاً لي، وهـذا ما لم أتوقعه، ولا أريده.. فوجوده سيخدش وحدتي، ويعيدني إلى دنيا الرسوم والعلائق مرة أخرى، وكنتُ قد نسيتُ أنني بشري في هذه الصحراء. فتوجهتُ إليه، وقلتُ له:

- يا بني.. لا تتركهم وحدهم وأنت دليلهم. فقال لي:

- بـل أنا مترجمتهم فقط. هم يعلمون جيـداً تلك الصحراء، فلا خوف عليهم منها. فقلت له:

- ولمـاذا ستبقـى إذن، وهذا ليس عالمك، ولا حياتـك، كما أنني لستُ في

حاجـة إلى مترجم، أو لأي بشري، فقد انقطعـتُ في هذه الصحراء وحدي، حتى يأذن لي ربي، أو يقضي أمراً كان مفعولا. فقال لي بتوسل:

- يا سيدي لقد انجذبتُ بك إليك، دون إرادة مني، فقلتُ له:

- يـا ولـدي.. كلٌ ينجذب إليه، وكلٌ بطريقته ينجـذبُ.. فكيف جذَبْتك، وأنا المجذوب من زمن إليه، وما زلتُ أنتظرُ على بابه. فقال لي:

- فُكَّ أسري إذن.. وأطلقني ألحق بالبعثة، فأنا المأسور وأنت الآسر.

فقلتُ له:

- يا ولدي.. يا ولدي.. أرفق بي وبشيبتين، وعُد كما كنتَ، فما أنا إلا عبد فان، ينتظر اللحظة . . . فقال:

- اعتبرني أرنباً ثالثاً، أو عصا ثانية، أو عمود خيمتك، المهم ألا أفارقك يا سيدي.

قلت له بعد لأي:

- ليس قبـل أن أراقبـك، وأن تأخـذ من قلبـي وطـراً دون إرادتي، وأن تنهـي عملك مع البعثة دون أن يتأثر عملهم بغيابك، وأن يكون رضاءهم عن مفارقتهـم ظاهراً لي. فقـال لي بعد أن أظهر فرحتـه وسعادته، وتوجّه إلى كبيرهم واسمه "ماسكوفيتش" وأتى به أمامي، وخاطبه:

- مسـتر "ماسكوفيتـش" هـل أنـت راض عـن مفارقتكم هنـا؟ صمت ماسكوفيتش قليلاً، ثم قال:

- ما دامت هي رغبتك، فنحن راضون، بل ونتمنى لك التوفيق في عملك الجديد.

فنظرتُ إلى إبراهيم بعد أن ترجم لي موافقة ماسكوفيتش وقلتُ له:

- ما حكاية هذا العمل الجديد؟ فقال إبراهيم:

- لقد فهم مني يا سيدي أن في بقائي معك عمل جديد، فيه إفادة لي أهم من عملي معهم.

مضى الوقت داخل المعبد، ودارت بينهم مداولات، وتحليلات، واختلافات في ترجمة بعض النصوص المدوّنة على الأعمدة والجدران. ولم أشأ أن أتركهم وهم الضيوف وأنا المضيف، وربما لأشعرهم ببعض الأمان في هذه الصحراء، وربما يضيفوا إلى ببعض من علمهم عن تلك الحضارة الغابرة. وقد لاحظتُ على إبراهيم بعض الغبطة والهمّة في عمله معهم، وهو يراقبني في كل لحظة تمرٌّ عليه بامتنان وحذر، لم أشأ أن أصدّه عن طلبه، فهو ما زال غضا، وعقله وجسده لن يتحملا شظف العيش ووعورة الطريق الذي ينتظره. فأدركتُ ذلك المأزق الذي اختاره إبراهيم لنفسه حين قرر هكذا فجأة دون تروّي أن يلازمني، فأشفقتُ عليه، وأخذتُ أتأمله بين حين وآخر، وأرسل عيناي إليه توسلاً ليتراجع عما اعتزامه.

انتهى عمل البعثة عندما هجم عليهم الليل والإرهاق، وجمعوا كل ما دوّنوه في أوراقهم، وصورهم لمراجعتها شأن أي بعثة اكتشاف مثلهم. رفع السيد (ماسكوفيتش) قبّعته ومسح رأسه الأشيب من العرق، وأسرّ بكلمات لمترجمة لم أفهمها بالطبع، لكنها كانت تحمل عتاباً لاحظته من نظرة عينيه لإبراهيم. ووجدتُ إبراهيم يبتسم له، ويشدُ على يديه امتناناً بنصيحته، وتوجهوا إلى سياراتهم المعدّة للراحة والنوم ليقضوا ليلتهم آمنين من غوغائية الصحراء، أمّا إبراهيم فقد أصرّ أن يقضي ليلته في خيمتي.

كانـت خيمتـي لا تسع إلا سـواي، لكنها قد تسع إبراهيـم معي مع بعض التعديـل. ولم أشأ أن أعرف بما أسرّ به رئيس البعثة له جعله يبتسم. الليل في الصحراء كاشـف للخوف على من يمضي ليلته الأولى فيه. لاحظتُ على إبراهيـم التصاقـه بعمود الخيمة كأنـه يريد أن أقيده فيـه حتى يمتنع عن الخروج في هذا الليل البهيم، حالة (الباريدوليا) التي أصابته جعلته يتخيل كائنات ليس لها وجود في الواقع. أحسستُ بحالته هذه، فدعوته للخروج من الخيمة ليتأمل إبداع الخالق في خلقه عندما يرى عناقيد النجوم التي تتلألأ فوق الأفق. فقال لي في خوف:

- ألم تر العفاريت والوحوش التي تملأ الصحراء؟ ضحكتُ من سذاجته وقلتُ له:

- كيـف تريد أن تعيش معي، وفي قلبـك كل هذا الخوف؟ حاول إبراهيم أن يطـرد الخوف من قلبه، فوقف غير عابئ، ثم توجه حذراً خارج الخيمة، وقدمـاه تتحسسان مكانهما، غير آبه بما تخيّلـه له عيناه، ما لبث أن استقر على حافة الخيمة، ويداه تُمسكان بالحبل المربوط بين العمود والوتد. غرستُ العصا الطويلة أمامه فتشبث بها، فقلتُ له مازحاً:

- حـاذر.. هـذه العصـا ربما تتحـول بعد قليـل إلى ثعبـان. سرعان ما انحنـت رأس العصـا وتشكلتْ رأس ثعبان أطـلّ فوق رأسـه. فارتعد خوفاً وهلعـاً، فتركها بسرعة. فقلتُ له: أغمض عينيـك، فأغمضهما، ثم قلتُ له: افتحهما، ففتحهما، فوجد العصا كما هي. فاطمأن قليلاً وقال:

- هل هذا سحر؟ أم حقيقة؟ فقلتُ له:

- ليس هـذا ولا ذاك. إنه خيالك المريض الذي خيّل لك ما رأيته، بعد أن سمعت مشورة رئيس بعثتك الروسي.. الخوف يأكل ما دخل في القلب من يقين. فلا تجعل خوفك فوق يقينك، فيهتز يقينك، فتقع في جُبِّ الخوف. فقال لي بعد أن استقر يقينه في قلبه قليلاً:

- يا لهفي على نفسي.. كيف أصبو إلى مكانتك، وأنا في هذا السوء. سامحني يا سيدي، وترفّق بي، واجعل ثقتك في، كثقتك في عصاك. فإذا كانت مأمورة، فأمُرْني.. لكن لا تطردني من الطريق.

لم يكد يمر الليل إلى منتصفه، حتى غشي إبراهيم النعاس، فتأمل العصا المرشقة جواره وابتسم لها، وأمسك بها في فضول، تحسسها، فوجدها ملساء كجلد الثعبان، وعندما وصل بيده إلى رأسها، وجد رأسها تطل عليه فاغرة فاها، ويتدلى منها لسان طويل من نار. فضحك من شدة الخوف. وقال لنفسه.. يا لهذا الاختبار الذي لن ينتهي. انقلبي أيتها العصا إلى ما شئت من وحوش.. لن يأكل الخوف ما في قلبي من يقين بعد الآن. لم يدْرِ إبراهيم متى نام، أو أين نام.

في الصباح وقفتُ فوق رأس إبراهيم أتأمله دون أن يراني. وعندما شمَّ إبراهيم رائحة القهوة، نهض، وفرك عينيه، ووجد نفسه داخل الخيمة وحده، لم يجد أثراً لي، أو حتى لأرنبي وعصاي. وكنتُ قد أعددتُ له الطعام، وتركته ساخناً، والقهوة البيضاء مُعدّة فوق نار هادئة، ما زالت حرارتها تبقي على سخونة القهوة.. فقلتُ لنفسي.. هذا الولد يأبى الرحيل، وقد اختبرتُ قدرته على التماسك، فوجدتُ فيه بعض يقين، وبعض خوف،

وتذكّرتُ يوم أن واجهت شيخي منذ زمن لم أعد أحصي سنواته. هذا الولد إبراهيم يشبهني، فلمَ لا آخذ بيديه كما أخذني شيخي بيديه.

نظـرتُ إلى إبراهيـم وهـو يبحث عنّـي في لهفة، ومـا أن رآني فوق ربوة مجاورة للخيمة صاح من فوره:

- يا سيدي.. فأشرتُ له بعصاي أن تعالى. فهرول إلى صاعداً الربوة، **وقال:**

– كيف رأيتني يا سيدي.. هل قبلتني في ضيافتك؟ فقلت له:

– لماذا لم تخف من الثعبان حينما رأيته ينظر إليك؟ قال إبراهيم:

– لقـد ذكرتـك في قلبي، فـازداد يقينـي أنه لـن يؤذيني، طالمـا ظللتُ بجوارك. فضحكتُ، وربتُّ على كتفه. وقلت له:

– بـارك الله فيك يا إبراهيـم. لكن حين يغُمُّ عليك شـيء ما يخيفك لا تذكـر غـير الحق تعالى، فيزداد يقينـك فيه. بعد رحيـل البعثة، سيكون لي كلام آخر معك. تناول فطورك وقهوتك قبل أن يسطو عليهما الأرنبان. وعد إلى بعثتك.

(7)
ماذا حدث لإبراهيم

- ماذا قلت آنفاً يا إبراهام عن "إيموتيب"؟ نظر إليها إبراهيم معنقا لها ببعض الأدب، وقال لها:

- اسمي إبراهيم يا سيدتي، وليس إبراهام؟ أما "إم حوتب الإله" فلا يسعني قول المزيد عنه. عليك بمكتبة البولشوي: الردهة الرابعة ـ الصف الخامس في الجانب الشرقي، الرف الثاني عشر، لن تستطيعين الوصول إليه إلا بسلّم. فقط كلمة (من فضلك) في أذن عم "حسبوا" فسرعان ما يأتي إليك بالسلّم، أو أخبريه فقط باسم الكتاب (إيمحوتب طبيباً وإلهاً. ــ الرجل الذي جاء في سلام) ستجدين بعض العلامات بالقلم الرصاص على أجزاء مهمة.. أنا من وضعتها. إقرئيه يا سيدتي.. اقرئيه.. ستجدين فيه ضالتك.. ابتسمت "ناتاشا" من قوة ذاكرة إبراهيم، وعلى سلامة لغته الروسية. مدّت يدها اليمنى، وقالت تعرّف نفسها له، وتنشد صداقته: اسمي ناتاشا، باحثة دكتوراة عن البشر المؤلّهين.

لم يجد إبراهيم بداً من مد يده، وابتسم، ولامس أناملها الدقيقة الشديدة البياض، وقال:

- إبراهام كما يحلو لكِ.. أو إبراهيم فهمي ـ مترجم وباحث عن الحقيقة. لم يدرِ لماذا قال هذه الجملة التي جرت على لسانه من دون اختيار منه. وما هي الحقيقة التي يبحث عنها. وما دخْلُ ناتاشا هذه من تلك

الحقيقـة. جذبته ناتاشا بعيداً عن بقية الفوج، حتى ارتكت على أحد أعمدة بهو المتحف بجوار تمثال تحتمس الرابع الضخم، الذي يقدّم رجله الشمال بشمـوخ على عادة باقي التماثيل. ألقت نظرة عابـرة على تمثالي الأمير رع حوتـب والأمـيرة نِفرت المنحوتين مـن الحجر الجيري، وركّـزت على عيني نِفرت لحظة، ثم سألته:

- ما هي الحقيقة التي تبحث عنها يا إبراهام؟

- هل أنتِ يهودية يا ناتاشا؟

- لماذا سألت هذا السؤال؟

- لأنكِ تصرين على مناداتي بإبراهام، وهذا لفظ توراتي..

- بالطبـع لا.. بل أنـا لا أؤمن بالأديان عموماً، وأحتقـر اليهودية خاصةً وإلههم الذي يتسلى برؤية الفلسطينيين يُذبّحون على يدي شعبه المختار دون رحمة.

- الشعـب المختـار.. فرية من أكاذيب اليهـود. والإله لم يأمرهم بذلك، بـل هم الذين باعـوا كل شيء حتى ضمائرهم.. من بـاع ضميره يا ناتاشا، لا يعرف اللّه.

- اللّه! أراك تتحدث مثلهم.

تغيّر وجه إبراهيم وقال لها في حِدّة:

- وهـل لنا غيره يا سيدتي؟ أحسّـت ناتاشا أنها دخلت منطقة محظورة الخوض فيها. عاتبته قائلة:

- لماذا لم تحدثني عن إيموتيب ـ إله الهندسة والطب عندكم؟

- اسمـه إم حوتب، ومعنـاه (الرجل الذي جاء بسـلام)، وهو ليس إلهاً

بالفعـل، إلا أن المصريـين رفعوه لقداسة الآلهة، ربمـا لاستشعارهم بنبوغه في الطـب، وحـلاوة لسانه، وطيبـة معشره، ومعجزته في البنـاء بطريقة لم يعهدوها على أحد من البشر قبله. لكن البطالمة هم من جعلوه إلهاً فيما بعد تقرّباً للمصريين.

– هـل كان إيميلي ـ عفواً ـ إم حوتـب ـ مصرياً خالصاً أم جاء من شعب آخر؟ احتد إبراهيم على تلميحات ناتاشا التي تحمل العنصرية ضد الشعب المصري. فقال لها:

– هذه أحداث مرّت عليها خمس آلاف سنة يا سيدتي، ومدوّنة في كثير من البرديـات والأعمدة والحوائط، لم تكن لديكم مثلها في يوم من الأيام. فإذا كانـت الحضارة المصرية هي أولى الحضـارات، فمن أين سيأتي إم حوتب. إنـه مصري خالص، أسمر، جَعد الشعر، تجري في عروقه مياه النيل. قرّبه الملك " زوس " أول ملوك الأسرة الثالثة بعد أن بنى له هرمه الشهير. التفت إبراهيـم إلى بقية الفوج فوجدهم يتلقونهمـا، ويستمعون له بانبهار. ابتسم إبراهيم وأشار إلى تمثاله القابع بجوف المتحف وخاطبهم قائلاً:

– إنه يشكركم جميعاً على هذا الاهتمام البالغ منكم، ويقول لكم إنه ابن تلك الحضارة التليدة التي خرجت من وادي الإله " حابي " المبجل. وفي لفتة مفاجئة لإبراهيم وضعت ناتاشا قُبلة فوق جبينه وقالت له:

– أنـت أيضـاً يـا إبراهـام ابـن هـذه الحضـارة. فاجأته بهـذه القبلة الطفوليـة، فابتسم لها عطفاً، ومد يـده ليشكرها، فتعسّرت قدماها بقدمي أحد السائحـين، فتلقفها إبراهيم بيديه، وأوقفها، فلاحت في عينيه صفحة

صدرها الجليدي، ينبت فوقه قطعتا كرز يتعامدان في ألق وتدلل وشقاوة. فارتجفت أهازيجه، وأخذته سكرة اللحظة، وأخفى آهة في جوفه، قبل أن تخرج من فمه، واستعاد رباطة جأشه، وحاول أن يستعيد ما انقطع من حديث عن إم حوتب، فتلعثم، فضحكت ناتاشا، وربتت على كتفه بحنان مبالغ فيه، وهمست في أذنه أمام الفوج بعد أن امتزج شهيقه بزفيرها:

- أنت إنسان مستقيم يا إبراهيم، فلا تخشاني، أنت تملك هذا الوعي القديم من جدودك.. أكملْ.. أريد أن أعرف المزيد عن هذا الإله.

- لم يدّعِ إم حوتب يوماً أنه إله. كان يحب الحياة كحبه لمليكه وآلهته. وكان يتأمل السماء في غيبة القمر، ويناجي النجوم، ويتلقف أسرارها من أشعتها النابضة منذ ملايين السنين. كان يعلم أن هذه النجوم تعود لكون وليد أخرجه الإله "أتوم" من بحيرته المقدسة "نون". وأودع فيه قانونه الأزلي. لذا كان إم حوتب يحب النظام ويكره الفوضى. وكان يقول دائماً أن الإله أتوم وضع قيوداً على الحرية التي وهبها لنا نحن البشر، وأن الحرية الكاملة هي الفوضى الكاملة، ولن يستقيم البناء بالفوضى. تحسست يده وضغطت عليها بأناملها، فاحمرّ وجهه، ووقف عن كلامه. خلّص يده من يدها برقّة، وأشار بها إلى تمثالي الأمير "رع حوتب" والأميرة "نِفرت" وقال:

- انظروا إلى عبقرية الفنان المصري القديم، لقد جعل عنق الأميرة شفافاً كأن المياه تنساب منه ونكاد نراها، نظرة عينيها المليئة بالرضا والحب لزوجها.. قاطعته ناتاشا:

- هل عنقها مثل عنقي هذا؟ وأشارت إلى منبت عنقها المرمري.. هل

هذا صحيح يا إبراهام. ابتسم إبراهيم، وقال لها بخجل:

- بـل أنـت الأجمل يا سيدتي. عنقك ينضح برائحـة الثلج عندما يغمره ذلك الوهج الذي يطِلُّ من عينيك الرائقتين. غمزت بعينيها، وقالت:

- هل أعتبر هذا غزلاً يا إبراهيم؟

- الغزل في محرابك يا سيدتي صلاة. فهتفت بتلقائية:

- (يالوبلو تيبيا)! فقال لها إبراهيم:

- إنها الغواية إذن، فليرحمني ربي. فقالت له بجرأة وصدق:

- سمّهـا ما شئت أيهـا المصري حفيـد إم حوتب. امتقع وجـه إبراهيم خجـلاً، وراح يداري وقـع كلماتها الثاقبة لقلبه، وأخـذ يتنفس بعمق قبل أن ينتقل إلى مكان آخر بالمتحف المصري.

كانـت كلمـات ناتاشا تشي بشـيء جديـد آت لا يعرف نهايتـه. أو كيف يتخلـص منه قبل أن ينزلق فيه ولا يخـرج. تسللت كلمات ناتاشا إلى قلبه.. قلبـه الـذي أخذ ينبح ككلـب وقع تحت قدمي فيـل.. وهي العصفـورة التي رفرفـت على قلبه، ولم تدُسّه بعد. حينما استعاد وعيه المفقود في لحظة ألقٍ حدثت في نقطة ما على هذا الكون البديع بعيداً عن الأرض بملايين السنوات الضوئيـة كان الفوج قد ذهـب، وجاءت بعده أفواج عديـدة. وأصبحت نانتا كغيرهـا تحمل ذكرى لقاء لم يتم. لكن القدر لم يمهله إلا عدة أيام، وتوالت خطابـات ناتاشا وصورها التي تمتلئ بكلمات الحـب والغناء والولع الشديد بإمـر حوتب، وقد لاحظ في كلماتها تقديسـاً لام حوتب وتكرارها كلمة الإله في كل خطاباتهـا، ومقارنات ورموز تتجه دوماً إلى حد التطابق بينه وبين إم

حوتب، حتى أنه لم يجد على صفحته على الفيس بوك أي إشارات أخرى إلا عليـه وعلـى ذلك الرجل الضارب في عمق التاريخ، كأنـه تحوّل فجأة إلى إم حوتب العصر الحديث.

لم يكـن يعلم أن قدره قد ارتسم في لوحه المحفوظ بذلك الوجه الملائكي الـذي يحتوي عينين تعصف بكل يقين يمتلكه، يظل هذا الوجه يلازمه كظله كلمـا أغمض عينيه، تطلُّ منهمـا عيناها، فتنداح من بـين شفتيه آهة تملأ رئتيـه شجناً لم يكتمل.. هـل حلّت روح إم حوتب في كيانـه فجأة ليجعل من ناتاشا فتاته التي يروم إليها، أم أن إم حوتب وقع في غوايتها فتمثّل له بشراً ليأمره أن يجلبها إليه؟ لم يكد يستقر في نومه المتقطع حتى انطلقت فلاشات ضوئيـة تتشكل عـن وجهي ناتاشا وإم حوتب، يتبـادلان موقعيهما في دماغه المُتّعـب. ساعة ويغيب في لحظة إغفاءة تأخذه إلى منطقة لم يستطع الكشف عنها، ربما لوجودها في كون آخر يسير إلى الوراء. لم يكن وجه ناتاشا ووجه إم حوتب وحدهما معه في هذا الكون الآخر، فقد استشعر بوجه شيخ غريب بلحيـة شديدة البياض ظهر له خافتاً، مبتسماً، ثم تلاشى فجأة. لم يستطع تحديد معالمه، لأن لحيته البيضاء قد صنعت هالة تشع نوراً يتدفق بنبضات كفلاش الكاميرا، فيغيم وجهه في هالة من نور.

في الصباح كان قد نسي وجه الشيخ، واستأثرت ناتاشا ببقية حلمه، بعد أن أزاح من المشهد غريمه إم حوتب. ظل شارداً حتى منتصف النهار، حتى فاجـأه صديقه صـلاح بنسخة من تمثال الباسـتري لام حوتب.. لف صلاح حوله، ماسكاً التمثال كفانوس رمضان.. ثم قال له:

- عندمـا تصـل إلى موسكـو ابحث عنهـا.. سيدّلـك إم حوتب هذا عن مكانهـا.. بركاتك يـا شيخ إم حوتب. ارتـدّت كلمة (بركاتك يـا شيخ) إلى بؤرة لا وعيه لتبحث فيه عن ملامح ذلك الوجه الذي جاءه في منامه دون أن يكلّمه. أثارت الطريقة التي قدّم بها صلاح التمثال إليه حفيظته، وسأله مباشرة:

- لمَ كل هذا يا صلاح. أهناك جديداً تريد أن تخبرني به؟

- ألمْ تعرف بعد يا صاحبي؟

- لا أعرف شيئاً. أرجوك كفى تشويقاً، وأخبرني؟

- فحبيبة قلبك يا ولدي نائمة في قصر البولشوي.. من حاول رؤيتها، أو حاول فك ضفائرها غيرك يا ولدي مفقود مفقود مفقود . . .

- قد أصابك الجنون يا صلاح. قلبي معك وعليك يا بني. لكنني لم أفهم منك شيئاً؟ همس صلاح باسمها باسماً..

- ناتاشـا! هل تعلم ناتاشا يا إبراهيـم؟ لقد أرسلتُ إلى الهيئة المصرية للسياحـة خطاباً موثقـاً من الخارجية الروسية والمصريـة باستجلابك إلى موسكـو لبعثـة دراسية. هنيئاً لك يا عم. ثم رفع يديه إلى أعلى وهتف.. أين ناتاشتي يا رب لتأخذني إليها، كما لإبراهيم ناتاشا.

لم يصدّق إبراهيم ما قاله صلاح، وأسرع إلى مقر الهيئة واستفسر عن الخبر، والغريـب أنه وجد جواز سفره معداً وجاهـزاً بتأشيرة دخول روسيا بعـد موافقة رئيـس الهيئة الـذي استدعاه علـى عجل لتكليفه بتلـك البعثة لاستعادة السياح الروس إلى القاهرة كما كانت من قبل.

لم تكـن ناتاشا قد بلغـت بعد قمة التوهج الذي يتألق من عينيها ووجهها

الأبيض المشّرّب بحمرة كلما وقعت على كل وجـه يشبه وجه إبراهيم. حين رأتـه مـرّة أخرى يجتـاز النفق المظلم المـؤدي إلى مكتبـة البولشوي.. خفق قلبهـا، فازدادت تألقـاً، وارتفعت درجة الحرارة في وجههـا، فأذاب الجليد وكشـف عن احمرار أنفها الدقيق وأذنيها الرقيقتين.. واتسعت عيناها حتى أحاطـت بكل وجهه.. أخذته في حضن عميق، وهي تغمره بقبلات لم يستطع صدّها.. ثم قالت له في شوق محموم:

- يااااه.. منذ عامين وأنا أنتظرك يا حفيد إم حوتب. نظر إبراهيم إلى أعمـدة مسرح البولشـوي الضخمة، وأمال برأسه المعلقـة بين ذراعيه اعلى أحد الأعمدة ينطحه، ويخلّص نفسه منها وقال:

- ناتاشـا.. أيها الوجه المرمري الغـارق في لجّة الضوء. لماذا تركتِ هذا القلب البائس بين أعمدة معبدك دون شفقة، ثم رحلتِ دون حتى كلمة وداع؟

- ليس بيدي يا حبيبي.. ليس بيدي. أمدّت يديها إليه لتعيده إلى حضنها من جديد. تراجع عنها، والخجل يملأ وجهه، بينما تعلّقت عيناه على صورة مـا، تمثّلـت فجأة على قمـة برج أحد قصـور القيصر لرجـل يقف ممسكاً بعصا طويلة ترتكز على الهواء. يشير بعصاه إلى الطيور فتتحول إلى كرات من الثلج تتساقط، حتى إذا ما اقتربتْ إلى الأرض تتلاشى.. إنه ذلك الوجه الـذي تمثّل لي في منامي حقاً.. هتف بها حينما رآه يتلاشى مع كرات الثلج. أخذ نفساً عميقاً محمّلاً بهواء بارد، ثم نفثه بين أطراف أصابعه، ودلف إلى مكتبـة البولشوي وناتاشا تحتضنه كطفل صغير تعلـق في جلباب أبيه. حتى إذا مـا وصلا إلى رواق الشرقيات، لاح لهما العم "حسبوا" مبتسماً ومهللاً ومرحّباً بهما، وصاح بروسية الجنوب..

– هــا أنت ثانية يــا إبراهيم. ما زال كتابك الــذي خططت فيه من وراء حجــب، وظننتَ أننــا لن نعرف.. موجوداً ينتظرك يــا سيدي. وقد أتت هذه الفتاة كثيراً، وتصفحته. فقال له إبراهيم:

– عجيــب أمرك يا رجــل.. أتتذكر اسمي وأنا غائب عنك منذ سنين. ولا تتذكر ناتاشا التي جاءتك البارحة فقط، يا لك من رجل قصير النظر.. هل تستطيع أية عيون أن تخطئ هذه الجميلة.. فقاطعه حسبوا:

– بل أخطأت عيناك أنت أيها المصري. فكل بناتنا جميلات مثل ناتاشا.. ضحــك الثلاثة، ونظــرا الرجلان إلى ناتاشــا وهما يتغامــزان.. ثم سحبه حسبــوا إلى الداخل، وأشار إليــه بالصعود إلى الصــف السابع والعشرين، الكتاب رقم سبعة. وقال له:

– أتــاني منذ برهة شيخٌ شرقيُ لم تألفه عيناي من قبل، وقال لي بعد أن وضــع الكتاب في مكان أعرفه.. أعطِ هذا الكتــاب لإبراهيم. ثم اختفى كما تختفي الروح.

فمــا أن سحب إبراهيم الكتــاب، ونظر إلى غلافه، وقع مــن فوق السلّم مغشياً عليه، بين دهشة حسبوا، ولوعة ناتاشا. حينما أفاق، نظر إلى ناتاشا وحسبوا، ورفع الكتاب فوق ناظريهما. وقال بانفعال بالغ:

– هذا الرجل كان يقف منذ قليل فوق قمة البرج. فقال له حسبوا:

– أي رجل يا ولدي؟

– هذا الرجل الذي على الغلاف.

– صاحب الكتاب؟ أم محققه؟

- لقـد فقـدت نظري يا حسبـو، اقرأ لي العنـوان، أو دعْ ناتاشـا تقرأه. خطفت ناتاشا الكتاب بلهفة من يدي إبراهيم، وقرأتْ: المواقف والمخاطبات (محمد بن عبد الجبّار النفّري) صاح إبراهيم بوهن، وقال:

- إنــه النفّري.. إنه ذلك الشيخ الذي أتـاني في المنام، وهو الشيخ الذي مـن برهة قد أحال الطيور إلى كرات الثلج.. أية علامة تريد أن تهديني بها أيها الشيخ الجليل؟ أي طريق تريدني أن أسلكه؟

كان المشهد لافتاً وغريباً، استرعى انتباه ناتاشا نطْقه بكلمة (النفّري). أسندتـه علـى صدرهـا، وفركـت يديـه وصدره، نفخـت في فمـه بعضاً من زفيرهـا. أفاق من غفوتـه المفاجئة، فتح عينيه، فاصطدمـت بوهج من نور عينيها، فأسلم نفسه لها، حين استشعر الدفء، وقال لها بوهن:

- لماذا ينازعني منك هذا الرجل؟ فقالت له دون تردد:

- من؟ إيموتيب أم النفري؟

- ومن تريدين أي منهما؟

- أريد إيموتيب. فهو مليكي وإلهي.

- ولكنــه ليس إلا وهماً، صنعـه القدمـاء لإلهائنا، وتغييبنـا، وتسليمنا بألوهية الفرعون.

- أنت تجسيده يا إبراهام. أرى فيك عينيه.. قم تعالى معي.

- إلى أين أيتها الروح الهائمة في جنبات روحي؟

- إليه.. إلى إيموتيب يا حبيبي.

- وكيف أهرب منه؟

- من؟
- النفرّي.
- اتركه لنا.. نحن كفليون به.

توكأ عليها قليلاً قبل أن يستعيد حيويته. خرج من المكتبة متأبطاً كتاب آبري، حتى وصل إلى الباب الخارجي. وقف شارداً بعض الوقت، يعيد النظر إلى قمة برج قصر الكرملين. ضغطت على يديه بفص خاتمها، فارتجف قليلاً. أغمض عينيه ثم فتحهما ليستعيد بصره في ضوء الشارع. شعر بصداع شديد أمسك جبهته. تناولت ناتاشا قطعة من الثلج المنتشر ووضعتها على رأسه، فأحس براحة. أشارت ناتاشا إلى إحدى السيارات التي وقفت أمامهما مباشرة، كأنها تنتظرهما. وانطلقت بهما. سحبت ناتاشا الكتاب برفق، وألقته مباشرة من شباك السيارة قبل أن تغلقه. أخرجت ناتاشا التليفون المحمول، وأدارت حواراً باللغة الروسية القديمة..

- إنه معي الآن..

وتمتم الهاتف بكلام لم يسمعه، فأجاب:

- فوراً.

تبين لإبراهيم بعض كلماتها، وفهم أنهما يتجهان إلى شارع (أربات)، خلف فندق بوشكين.. البناية القديمة. لم يفهم بقية الكلمات، إلا أنه استشعر بخطر ما من غموض تلك المكالمة. تحسّس الكتاب بجواره فلم يجده. فقال لناتاشا:

- أين الكتاب؟

- أي كتاب؟
- كتاب آربري.
- لم أشاهد معك أي كتاب. انزلاقك من فوق السلّم كان شديداً.
- وحسبو.. وحديثه عن الشيخ العربي الذي أشار له بالكتاب؟
- أنت واهم يا حبيبي. لم يكن معك إلا هذا. وأشارت إلى صندوق محكم القفل بعناية، وعليه شهادة مكتوب فيها: (تمثال فرعوني تقليدي من منتجات الأقصر خام الألباستر).
- آه.. هذه هديتي إليكِ يا حبيبتي.
- ماذا تقول؟
- هديتي إليك.
- لا.. لا، أقصد حبيبتي. إيموتيب حبيبي، واحتضنته بشدة. فتسلل الدفء بين أوصاله، وهو في خدرين متناقضين، خدر المخدر الذي تسلل من خاتمها، وخدر الحضن الدافئ بين ذراعيها.

دخلت السيارة إلى ساحة (سمولينسكايا)، ثم لفّت مرتين قبل الانزلاق من بوابة (أربات)، وانعطفت يميناً إلى شارع جانبي من الشارع ذي الطابع الشرقي، حيث يقبع فندق بوشكين التاريخي. أشارت ناتاشا للسائق بالتوقف أمام إحدى البنايات القديمة التي تحمل جدرانها نقوشاً من فسيفسائيات عربية قديمة. لم يدرِ بنفسه وهو يدلف البناية بصحبة ناتاشا. كانت إرادته مفقودة مع كتابه الذي ما زال يذكره ويبحث عنه. شاهد في مدخل البناية الغامضة أشباحاً تحمل بعض ملامح بشرية، وكأنهم نُحِتوا من كتل الثلج

الأبيض الشفاف. وجوههم الصفراء تحمل ملامح (الزومبيين) التي امتلأت السينما الأمريكية بهم، وأسنانهم اللامعة المدببة تخطف الضوء من العيون. يكاد يرى أمعاءهم، وقلوبهم النابضة. كما اشتم رائحة الموت في أعينهم الحمراء. المكان أشبه بمقبرة فرعونية واسعة تمتلئ بكثير من النقوش الفرعونية، وفقرات طويلة من كتاب الموتى، كما يتزين السقف الأسود بكثير من النجوم المدلاة. تتناثر التمائم حول الأعمدة حتى تنتهي إلى التابوت الذي يتوسط الغرفة. رأى بعينيه الممثلتين أشباحاً آخرين من البشر على هيئة تماثيل فرعونية، لكنهم يتحركون بخطى وئيدة، يقلدون خطوات الفراعنة القدامى، ويرسمون الجهامة والجدّية على وجوههم، كأنهم في طقوس صلاة، ويترنمون بلغة أقرب إلى اللغة المصرية القديمة. غامت الرؤية عن عيني إبراهيم، وتفصّد عرقاً ساخناً، قبل أن يغيب عن وعيه تماماً.

لم يشعر بأي وقت قد أمضاه في غيبوبته، فساعة يده هي الوحيدة التي على جسده قد توقفتْ عند لحظة ركوبه السيارة مع ناتاشا. وجد نفسه عارياً تماما من كل ملابسه، ولاحظ الكثير من الخطوط الحمراء التي أخذت تدور مع أعضائه وتنتهي عند منبت السرّة. حاول أن يستعيد وعيه، وينشّط ذاكرته قليلاً، ويجول ببصره في المكان. فوجد ناتاشا ترقد تحت قدميه، ويداها متشبثتان بهما، كان وجهها ممتقعاً، وجسدها بارداً رغم دفء المكان، وتلبس غلالة رقيقة من نسيج الكتان الفرعوني، وحزاماً مزركشاً يتدلى منه شريطاً من ورق الذهب يحمل رمز " إم حوتب" وألقابه.

لم يكد يحرّك قدميه إلا وشعرت ناتاشا بحركته فهبّتّ واقفة ثم انحنت، ثم جلست على ركبتيها في وضع السجود، ورفعت يديها بإشارة الصلاة عند الفراعنة، وهمست:

- معبودي المبجل إيميلي.. إيموتيب.. إيموتيب. انخرطت في صلاة صامتة، كأنها في أحد تمارين الأيروبيك. حاول أن يرفعها من وضعيتها الشاذة تلك، فلم يستطع، رغم خفة جسدها، همس في أذنها:

- أين ملابسي يا عبدتي؟ ماذا فعلتم بي؟ وما سر كل تلك الخطوط الحمراء على جسدي؟ من أنتم؟

- فقط.. أين ملابسي؟

تركها ساجدة، وقام يتجول في فضاء المكان الواسع. يمتلئ المكان بكثير من رسوم المصريين القدماء، وصور عديدة لتماثيل وأشكال إم حوتب. لكنه لاحظ صوره منتشرة بين صور إم حوتب.. حليق الشعر، مرسوم الحاجبين، رمز الحياة عنخ حول رقبته، وعصاه السحرية التي تنتهي بعين (ودجات). فما أن لمس إحدى العصي، إلا وأحس ببعض قشعريرة. فهتف:

- أين أنا أيها المجانين؟ كيف نقلتموني من موسكو إلى إحدى مقابر الفراعنة في البر الغربي بالأقصر؟ أين ملابسي؟ أين..

لم يكمل.. فقد وجد ناتاشا تتحرك نحوه وهي في حالة وجد وهيام.

وقالت له:

- وهل يحتاج الإله إلى ملابس يا مولاي؟

- يحتاجها يا بنيتي ليستر نوره عن أعين عابديه.

- حبيبـي.. معبـودي.. لقد تهيأت لـك منذ ثلاث ليـال، نَمْ معي الآن يا مليكـي. أريـد منـك فرعونـاً صغـيراً. وأخذت تتلـوى وتتراقصـ بحركات فرعونية، لتثير فيه الغرائز الدنيوية، فقال لها:

- لا يستطيع إلهك أن ينام معك وهو عارٍ، وجائع، وظمآن.

- وهل تجوع الآلهة يا سيدي؟

- أجل.. تجوع، وتمرض، وتموت، إذا أحسّت بغبن مخلوقيها عليها.

- انتظـرني قليلاً. سأعود إليك بكل ما تشتهيه.. ثم ابتسمت، وأردفت.. وحتى تشتهيني.

- وما بال الكتاب الذي كان بيدي؟

- إنساه يا مليكي، فقد وارته الثلوج.

لم تكـد تخرج ناتاشا من المبنى العتيـق، حتى مسح إبراهيم المكان بحثاً عمـا يسـتر سوأتـه، فوجد ملابسـه معلقة على أحـد تماثيـل إم حوتب. في لحظـات كان إبراهيـم في قلب أحد التأكسديـات دون انتظار ناتاشا. البرد في موسكـو في هـذا الوقت من العام لا يتحمله بشر. فقـد لفّ جسمه ورأسه بشال مـن الصوف وجده جوار ملابسه، وانصاع لعقلـه قبل أن يغويه قلبه. الغوايـة لا تقبل القسمة على إثنين، إذا مكث وانتظر فقد وقعت الواقعة، ولم يهيئ نفسه للوقوع فيها. فقد أحسّ بأن عيناً ترصده. فما أن وصل إلى فندقه اغتسـل وأزال تلك الخطوط الحمراء التي قد تدفعه إلى الغواية أو الجنون، ربمـا يكون النفّري الذي لا يعرفـه، أو شيخ آخر يتابعه دون أن يدري.. هتف مـن أعماقـه.. أين أنت أيها الشيخ.. كيف تركتنـي لهذه الغواية.. هل فازت

عليـك ناتاشا، فانتزعتني منك.. أم ما جاء منك من علامات كانت وهماً.. يـا الله.. نجّني من فرعون وإلهـه.. وخذني مني إليك، حتى يستكين قلبي.. قلبي الذي ما زال مفعماً بها.

مرّ على مكتبة البولشـوي، وقابل "حسبوا" وأخبره بما حدث من ناتاشا وأصحابها، وعن ضياع كتاب البري عن النفّري. فقال له:

- أنـت فتى طيب يـا إبراهيم.. سأشـتري لك كتاباً غـيره، فلا تبتئس. واحـذر منها يـا بني، فهي تدين بديانة قديمة قد تـؤدي بك إلى التهلكة إذا لازمتها. عُد إلى بلدك يا ولدي. فمصر هي المحراب والمهد والسكينة.

- أتعرف مصر يا عم حسبوا؟

- أعـرف المسلمين.. ارحل يا بني تصحبك السلامة، وإذا جاءت لتسأل عنك، فسأخبرها أنك ما زلت في شارع (أربات) تبحث عن مقبرة بوشكين..

- وماذا عن البعثة؟ أطرق برهة، ثم قال:

- تستطيع أن تقضي بعض وقتها في جروزني بالشيشان، ثم ناوله خاتمه **وقال له:**

- هـذا خـاتم أخي حسنو شيخ مسجد الزعيـم الدموي أحمد قديرو في وسـط جروزني.. اذهـب إليه سيدّبر لـك المسكن والتعليم وزيـارة الأماكن السياحية التي جئت لتدرسها. ابتسمتُ له عن رضا وقبول، وقلت له:

- سـأراك حتمـاً يوماً مـا في القاهرة.. لاحـت لي ابتسامتـه وأنا أركب التاكسي متجهاً إلى مطار موسكو، ثم إلى جروزني.

(8)
تبدّل الحال

رأيتُ كما رأى النِفّري أن أخرج من حال الفناء إلى حال البقاء في بعض الأوقات، لأشحذ الهمم، وأراود النفس، وأختلط بالعامة، وأصاحب المخلوقات، وألبس حُلّة الدنيا، قبل أن تغيب عني بهجتها، وأدخل في جُب المواجد بدون زاد منها. فخرجتُ من حال الفناء، أو الجمع، أو المحو، أو السكر، إلى حال البقاء، أو الفرق، أو الإثبات، أو الصحو.. كما قال لي شيخي ذات مرّة: أن الذي يبقى على حال الفناء لا يستطيع أن يمارس الرياضات النفسية والعبادات والفضائل. وقد قرأت للنفري قوله: وقال لي: قل لهم.. رجعتُ إليكم فقلتُ أوقفني، ومن قبل أن أرجع، ما كان لي من قول لأنه أراني التوحيد، فكنتُ به لا أعرف فناء، ولا بقاء، وأسمعني التوحيد ولم أعرف استماعه، وردّني بعد هذا كله كما كنتُ فرأيتُ في الردِّ صحيفة، فأنا أقرأها عليكم). (النصوص الكاملة للنفري ــ أ.د. جمال المرزوقي). وقد تأسيتُ بشيخي حينما لقيته أول مرة ولم يردّني، فكيف لي أن أردّ إبراهيم، وهو اللائذ بي من وقْدِ الجمر الذي اكتوىَ به مبكراً.

لم تمكث البعثة طويلاً، فقد اطّلعوا على الكتابات الهيروغليفية، ودوّنوها، وصوّروا كل الأعمدة، وبقايا المعبد، وقد كانت لكلماتي دليلاً قوياً لهم فيما شاهدوه ودوّنوه. تجولوا مرة أخيرة لساعتين داخل المعبد، ثم قاموا بوداع إبراهيم، بعد محاولتهم أن ينفحوه أجره، وكثيراً من الطعام المعلّب،

إلا أنــه رفض وشكرهم، وأخبرهم بأنه ليس في حاجة إلى المال والطعام بعد التزامه الطريق. فسأله كبيرهم:

– كيـف تترك الدنيـا بملذاتها، وتعيش في تلك الصحــراء يا إبراهيم.؟ مـا هذا الهاجس الذي أتـاك فجأةً من ذلك الشيخ جعلـك أسيراً له؟ فقال له إبراهيم:

– إنهـا لحظـة لم يقو قلبـي على تحمُّلهـا، وفاضت على عقلـي بكهرباء أمحـت منه الذاكرة، ولم يبق فيه غير صـورة الشيخ، ليس بيدي يا سيدي.. ليس بيدي..

فأســرّ لإبراهيم بكلمات نقلها لي عن رغبتهم في استضافتهم في خيمتي التي لم يروها حين دخولهم المعبد. كان الطلب مباغتاً ومبهماً. وسألتُ نفسي .. مــاذا يريد هؤلاء الغربـاء من الخيمة التي لن تسعهم. فأشرتُ بعصاتي إلى الخيمــة التي اتسعت بما يكفي لتسع الجميع. أثناء طريقنا نحو الخيمة أراد أحـد العلمـاء أن يأخذ العصا منـي ليراها، فغُرِسـتْ في الأرض كأنها شجــرة، تراجع العالم الروســي إلى الخلف حتى كاد أن يقع، بعد أن أصابته الدهشة، فقال لإبراهيم: ماذا حدث للعصا يا إبراهيم؟ فقال له إبراهيم:

– إنها مأمورة بأمْر صاحبها يا سيدي. هذه أحوال العارفين. فسأله:

– ومن هم العارفون يا إبراهيم؟ فقال إبراهيم:

– لا أدري يــا سيــدي، لكنهم قــوم تبحّــروا في العلوم الباطنيــة التي لم يعرفها العلم الحديث بعد. فقال لي:

– اسأله يا إبراهيم أن يشرح لنا ما لا نعرفه عن علمه العارف به؟ فقلتُ له:

- عندما نستقر في خيمته نسأله. ربما يجيبنا عما تريده منه.

لم نكد نصل إلى الخيمة إلا وهمّ الأرنبان بملاقاتي برقصة جميلة أسعدت العلماء الروس. اتخذ الوفد الخيمة ملاذاً لهم من وقْدِ الشمس التي بدأت تبث أشعتها الحارقة في مطلع هذا الصباح، وجلسوا على الرمال الباردة وهم يتأملون الخيمة من الداخل، وقد أدهشهم خلوّها من أي وسائل للراحة. لم يكد يستقر (ماسكوفيتش) حتى سألني مباشرة عن طريق إبراهيم:

- ما هذا العلم الذي نجهله أيها الشيخ؟ فقلت له:

-أي علم تقصد يا سيدي؟ فنحن قوم لم نبلغ العلم بعد مثلكم. فقال لي:

- لكنك قد أطلعتنا بالأمس بعلم جديد اسمه (علم الفراسة، أو التنبؤ) لم نكشف عن أغواره بعد، ولنا تجارب عديدة على الحيوانات.. ثم ابتسم وقال.. على الأرانب.. ثم أشار إليها، ثم عقّب على كلامه:

- ألا تعلم أننا حاولنا فهم الروح عن طريق التجارب المعملية ولم نوفّق. كيف أتى لك ذلك العلم يا سيدي بدون تجارب معملية مثلنا؟ فقلتُ:

- إنه علم بُني على أساس عقائدي، وليس على مؤسسات علمية وتجارب. العقل يا سيدي غير قادر على معرفة الروح، لا يفهم الروح إلا خالقها، ويُعطي مِن أسرارها لبعض عباده دون اختيار منهم. فقال:

- مثلك؟ قلت له:

- أنا ما زلتُ على الطريق، ولم أبلغ الحُلُمَ بعد. قال:

- لكنكم نسجتم الأساطير على رسولكم، وتقولون إنكم أخذتم ذلك العلم منه. فما رأيكم عما دوِّن في كتب التراث عندكم بما جرى على يديه؟

انتابنــي القلــق مــن أسئلته، ربمــا لأنه يخوضــ في منطقــة لا يُسْمح لي بالخوض فيها، لكني عذرته على جهله بأمور ديننا.. فقلتُ له:

- هنــاك فارق كبير بين الأسطورة أو الخرافة، والمعجزة يا سيدي، ربما لأنــك لا تملك حساً صوفياً مفعماً بالروح فلــن تفهم ما سأقوله لك ـ معذرة على قولي هذا ـ فالأسطورة أو الخرافة كما حللها العالم البلجيكي الفرنسي " كلود ليفي شتراوس " على أنها أمر خارق للطبيعة، ولا تخضع لقوانين الكــون، ينسجهــا عادة العقل البدائــي حسب رؤيته للظواهــر الطبيعية، مع إضافــة الخيال لها كلمــا تناقلها العامة من البشر، ونحــن لا نعارضه، إنما حــين نتكلم عن معجزة الرسول الكــريم، فهو ما لم يفهمه شتراوس أو غيره مــن علماء الأنثروبولوجــي.. فالمعجزة عندنا هي أمر خــارق للطبيعة لكنها تخضــع بالفعل لقوانين الكــون ونواميسه كما خلقه الله عز وجل، تجري على يدي الرسل والأنبياء، أو من يمنحهم الله القدرة على استيعابها، ويؤمن بها كل مــن آمن به، وبأقواله، وأفعاله مثل رسولنا الكريم. وما نحن إلا سائرون في طريقه، ولو أعملتَ العقل في المعجزة، وأخضعتها لنواميس الكون فستجد تلــك القوانين فيهــا، لكنها ستبدو لك كنوع من حضــارات آتية من المستقبل بفعــل التطور، لكن استدعاؤها قبــل ميعادها هو الإعجاز. أضرب لك مثلاً: لدينــا معجزة الإســراء والمعراج، والتــي تصف كيف خــرج الرسول الكريم مــن هذا الكون إلى أكــوان أخــرى، أو بلغتكم كيف استطاع هــذا الرجل أن يحنــي (الزمــكان)، ويحدث فيــه ثقباً يعبر منــه إلى تلك العــوالم الأخرى التــي لا تجري عليهــا قوانين الفيزياء، وأنتم لم تدركــوا هذه الحقيقة إلا في

نهايــة القرن الماضي فقط، بل وتعتبروها من المستحيلات التي قد تحدث في المستقبل البعيد جداً. فسألني:

– لكــن كيف توصلتَ إلى هذا الاستنتاج ـ معــذرة ـ وعقلك كبقية قومك عقــل بدائي لا يستطيع إدراك قوانين الطبيعة وأنظمتها؟ فابتسمتُ ابتسامة الرضا على ما وهبنا اللّه لنا من نعم لا يدركها صاحب العقل البراغماتي.

وقلتُ له :

– ليســ هنــاك فارق بين العقل البدائي والعقــل العلمي كما وضّحه ليفي شتراوس ـ أتعرفه يا سيدي؟ فقال:

– الفرق؟ قلتُ:

– لا.. (شتراوس). قال:

– نعــم. قرأتُ له قليــلاً. لكن المدهش أنك تعرفه، وقد ذكرته لي مرتين، وأنت لا تؤاخذني درويش لا تتعدّى ثقافته بيئته. فقلتُ له متعجباً، ومستنكراً:

– للمرة الثانية تظلمنا بنظرتك لنا أننا ما زلنا نملك ذلك العقل البدائي . . . إن العقل الإنساني ليس عقلا مطلقا على غرار عقل اللّه المطلق، إنما هو عقــل نسبي، وأن هذا العقل سواء أكان بدائيــاً أم متحضراً، فهو يَنْشُدُ فهم الكــون، وبالتالي لا يختلف عن أي منهما.. يقول شتراوس: ليس هناك فارق بــين العقــل البدائي والعقل المتحضــر، وكل ما هنالك هــو أن العقل البدائي لا يعــرف الكتابــة، وأنه ينشد الفهم الشامل للكــون وليس الفهم العام الذي ينشده العقل المتحضر. والفارق بين الشامل والعام: أن الأول يمنحك الوهم بأنك تتحكم في الكون، أما الثاني فيمنحك القدرة على التحكم بالفعل في الكون.

.. توقف (ماسكوفيتش) عن الأسئلة، وخاطب إبراهيم قائلاً:

- لو مكثنا مع هذا الرجل أكثر من ذلك، ربما دخلنا جميعاً إسلامكم. أبلغ هذا الشيخ تقديري له، ولعلمه الذي لم أفهمه، ربما يوماً ما أعود إليه بعد تقاعدي. ابتسمتُ له وهو يغادر الخيمة، وأشرتُ بالعصا إلى أقصى الغرب وقلتُ له:

- إن ما تبحثون عنه هناك، حيث أشرتُ بالعصا.. بعد واحة سيوة بقليل.. تصحبكم السلامة. فما لبث (ماسكوفيتش) أن ظهرت له عن بعد عدة أعمدة لمعبد إيزيس الذي يبحث عنه. فنظر الرجل ملياً إلى وجهي والعصا، وأسرع الخطى مبتعداً عن خيمتي وهو يقول كلاماً بلغته لم أفهمه، لكن توقّفه كل عدة خطوات، ونظرته إليَ، أحسسنني بأنني قد لمستُ فيه وتراً يعصف بعقله من شك ويقين معاً.

لم يبق إلا إبراهيم الذي انتظر خارج الخيمة كي آذن له بالدخول. فقلتُ له:

- وأنت أيها الفتى الذي يُدعى إبراهيم، ألا تريد أن تلحق بحياتك الرغدة مع هؤلاء القوم وغيرهم، وتتركني أنعم بما جئتُ إليه؟ فقال إبراهيم:

- لقد أسرتني كلماتك عن تفسيرك للإسورة والمعجزة وأنا أترجمها لماسك وفيتش، وقد خاف الرجل من تأثيرك عليه خوفاً عظيماً، لقد غلبتهم يا مولانا وهم العلماء، فكيف لي وأنا التلاشي منك ومنهم؟ فقلتُ له:

- يا ولدي.. الطريق طويل، والعمر قصير، وما ستراه الغد أهون بكثير مما ستراه بعد الغد، فانجُ بجلدك، وحافظ على المسافة التي بينك وبين نفسك، ولا تطيعها في ذلك الاغتراب الذي ترمي إليه نظرتك الضيقة،

وعشْ حياتك كما ترنو إليهــا روحك بين صفاء وكدر، فمــا الحياة إلا كلمح بالبصر . . . فسألني بدهشة:

- ومن هو (ليفي شتراوس) هذا يا مولاي؟ فقلتُ له بحدّة:

- لســتُ مولاك، ولا مــولى أحد، فاحذر من هذا اللغــط. أما عن (ليفي شتراوســ) فكنتُ قد قرأتُ له، ولغيره قبل الجذبــة، وهو فيلسوف، ومفكر، وعــالم أنثروبولوجــي بلجيكــي فرنســي معاصــر، توفى عــام ٢٠٠٩ م، حلل الأسطــورة وردّهــا إلى جذورهــا الأولى. ها أنا ذا جاوبتــك، فمتى ترحل يا ولدي أعزك الله ومتّعك بكامل العقل؟ قال:

- **سـؤال أخـير:** وكيف عرفـتَ أن تفسر له معجزة الإســراء والمعراج بالعقــل، وليس بما يجــري عليك من علم باطــن؟ أمسكتُ أذنــه وشددتها. وقلتُ له:

- ومــن قــال إن العلم الباطــن لا يحتــاج إلى علم الظاهــر؟ إذا اجتمع العِلمــان في عقل إنسان، دانت له الدنيا، واقتربت منه السماء، وهذا هو سر مــن أسرار الحضــارة الإسلامية التــي دخلت أوروبا بعــد أن فهم علماؤهم علماءنا الذين جمعوا العلمين. فقال لي مسترحماً، ومتشبثاً بالأمل:

- ولكني أروم الوصل، وأبغي البقاء معك، عسى أن يتغمدن الله برحمته، ويمنّ على بفيضه على روحي فأرتاح. قلتُ له:

- ترتاح ممن يا ولدي؟ فقال:

- منها..

- ألم أحذرك منها مرتين؟

- متى يا مولاي؟ آه.. انتظر! تذكّرت.. أنت من ظهرت لي على قمة برج البولشوي.

- لست أنا بالتأكيد ولا غيري. إنها روحك المضطربة، تتمثّل لك كهيئة الطير، أو كهيئة الشيخ، كي تجذبك إلى عالم جديد، كُتِب عليك أن تخوضه وحدك دونها.

- دون من يا سيدي...؟ منذ أقل من ساعة كنتُ لا أعرف شيئاً عن هذا العلم بسبب عزوف نفسي عنه. وحين سمعتك، أحسستُ بوهج يدخل قلبي خلسة، فأضاء روحي الواهنة، وقد نشأ صراع بيني وبين نفسي، فأتعَبتْني، فأصررتُ على معاقبتها حتى تخرج منّي، فقد دمّرتني طيلة عمري المنصرم، ولم أقو على مجابهتها إلا حين شاهدتك. فكيف لي أن أفارقك وأعودُ إليها فتتشفّى فيّ، وأشقى بها، لذا فقد قررتُ ألا أفارقك. قلتُ له:

- من أجل أن تهرب من نفسك.. تكويني أنا بنارها. قال:

- يا سيدي.. أنت تجاوزت شرور الأنفس، بل وتجاوزت الكون كله، فإذا ما اقتربتَ منك النفوس تلاشت، وإذا باغتتك احترقتْ.. أنت يا سيدي محصنٌ ضد المحو.. فقلتُ له مبتسماً:

- كلامك لا يدل عن جهل فيك، وروحك تكاد تصفو إلا من علائق الدنيا، وسلامة مقصدك في عينيك يقين يقبعُ، وجسدك يهمُّ لربه يركعُ، فإن كنتَ تبغي الوصل بعد قطيعة، فارحل بذات الوصل والناس هُجّعُ. قال:

- بل قل: فاظفر بذات الوصل والناس هُجّعُ، فلن أرحل حتى لو آذيتني. فماذا تقول لي وأنت القطب وأنا المريد؟ قلتُ:

- المحبّون لا يأدون، ولا يعبسون، ولا يظنّون، ولا يحنثون، ولا يفعلون إلا بما فيه كل خير، فقل لي: ماذا تريد مني أيها الفتى؟ فقال لي:

- بقيتُ لأســأل.. وأنتظر الإجابة. فقلتُ له بعـد ابتسامة عريضة شقّت وجهي، وأنا أنظر إلى مكان شيخي في الفضاء العريض:

- وهل ستتحمل؟ قال لي:

- سأراودُ نفسي على طاعتك. فقلتُ:

- الطاعة للّه وحده، وما أنا إلا عبدٌ من عبيده. فقال لي:

- أطيعك في الفعل مثلك، لأصل إلى طاعة اللّه. فقلتُ له:

- أنا لست الطريق. بل أنا في الطريق. فقال لي:

- أسير خلفك.. ربما يتولاني اللّه برحمته ويرشدني. فقلتُ له:

- أثقلـتَ عليَ الأمر يا بني، ولا أعلمُ من أين آتيك بالإجابة، وأنا السائلُ دائمـاً، والمنتظرُ دائماً، والغائبُ دائمـاً، فترفّق بي، وكن بي رحيماً حين يغمُّ علـيَ السؤال، وتتوه عني الإجابة.. وللّه الأمرُ من قبل ومن بعد. ناولته عصا بطوله وقلتُ له:

- عـد إلى بيتـك واستأذنهـم في الغياب، ليرضوا عنـك، ولا تكون سبباً في آلامهـم، وودُعهـم بما يليق الـوداع، ثم عُـدْ إلي. فـإذا وجدتني، سلكت معـي الطريق، وإن لم تجـدني، فعليك بالتزام الخيمـة والأرنبين حتى أعود إليـك إذا شاء لنا المولى اللقاء. ولا تنسى السؤال عن صديقاي أحمد بيومي المحامي، والمهندس عبد الحميد لبيب، وكذا أهل بيتي ونسيبي، لكن دون أن تشعرهم بأنك تعرفني أو قابلتني.

لم يمـرّ أسبوعان حتى عاد إبراهيـم إلي، وفي جعبته بعض من أخبار لم أشـأ أن يخـبرني بها حتى يستريح مـن طول الطريق. وحـين جمعنا المساء

خـارج الخيمـة حيث الأرنبان يمرحـان في ود لم آلفهما عليـه، وكان الأرنب يرفع أذنيه في نشوة وحبور، بينما أنثاه تئن في مشيتها بعد أن امتلأت بطنها، وعافـت الطعـام. فما كان من إبراهيـم إلا أن قدّم إليهمـا بعضاً من طعام الريـف من خضر وجزر، فغمرهما السرور، وهزّا آذانهما شكراً ومحبة. ثم توجه لي بالسؤال عن حالي. فقلتُ له:

– صليـتُ عليـه صلاة الغائـب، ورأيته في مكانة طيبة بـين يدي خالقه؟ فقال لي إبراهيم:

– من يا سيدي عمن تتحدث عنه؟ قلتُ له:

– من أتيت بخبر رحيله عن دنياه. فقال لي:

– لم تجبني بعد. فمن هو يا سيدي؟ قلتُ له:

– يـا ولـدي.. قلـوب العارفين ترى الأبـد، وعيونهم تـرى المواقيت. كان أحمـد بيومـي في عينيه سؤال يكـدّره كلما تذكّـره. لم يتـوان إبراهيم على إصدار الدهشة من فراستي، وبادر في سؤالي:

– وكيف عرفت يا سيدي، وأنت معزول عن الدنيا؟ قلت:

– من عينيك يا ولدي. فقد وجدتُ فيهما فرحة وحزناً. قال لي:

– هل تبدو عيناي كتاب مفتوح لك؟ قلت:

– العين تفضح صاحبها، إن لم تكن مدرّبة على الكتمان. قال لي:

– ومتى أدركتَ ذلك، وأنت لم تعرفني سوى ساعات قليلة؟ قلتُ له:

– ليـس كل ما يدركه المـرء يعرفه. الإدراك أن تحس بطيفه، والمعرفة أن تحس بحقيقته. قال:

– حيّرتني معك يا سيدي.. هل استكمل ما أحمله لك من أخبار؟ قلت له:

– أكمل يا بني.. فأنا لا أعرف شيئاً مما ستقوله. وأتشوق لمعرفة ما تحمله. قال:

– المهندس عبد الحميد ترقّى. وابناك وزوجتك بخير. ونسيبك الشيخ دسوقي قال لي إنه يعرف عنك أكثر مما أعرفه أنا. فقط يذكّرك بهذه المقولة العجيبة والتي لم أفهم منها شيئاً، وكأنه يريد أن يزيدني دهشة، كما بدا في كلمته غموضاً (أكتب حكمة الجاهل، كما تكتب حكمة العالم). فما معناها يا سيدي. تبسمتُ له. وقلتُ:

– ليس أوانها يا ولدي. عليك أن تستعد لرحلة فوق الجبل.

ما هي إلا أيامُ مضت، وأنا أعدُّ العدّة للصعود لأعلى الجبل، بينما يقوم إبراهيم بملء زِقّ الماء، وما تيسر للخيمة، ربما يطول بنا المكوث فوق الجبل إلى أن يأذن الله تعالى. كان إبراهيم أكثر بهجة لهذا الصعود، ربما يقرّبه إلى بداية الطريق الذي اختاره طواعية. عند شروق الشمس بدأنا رحلتنا للصعود. كان الطريق متصاعداً وممتداً، وتبدو قمة الجبل من الأسفل كذؤابة شمعة مطفأة. نظرتُ خلفي فرأيت إبراهيم يجاهد في الصعود، بينما الأرنبان وسخالهما، بعد أن ولدتِ الأنثى عدة أرانب صغيرة يمرحون خلفه، ويقفزون في رشاقة وسعادة. وعندما رددتُ نظري إلى الأعلى مرة أخرى وجدتُ.. ماذا رأيتُ.. يا إلهي.. رأيتُ شبحاً يحثُّ الخطى ليسبقنا إلى الأعلى. فأمعنتُ النظر فوجدته شيخي.. فهتفتُ بأعلى صوتي:

- مـا زلنـا كلنّا على الطريـق.. ما زلنـا كلنّا على الطريـق.. ثم نظرتُ للسماء ودعوتُ في تضرع.. ارفق بنا يا إلهي.. ارفق بنا.. بينما تزداد عيني إبراهيم اتساعاً ودهشة لعـدم رؤيته من أنادي عليه. فجاءني صوت شيخي من بعيد:

- دع إبراهيم يخوض تجربته وحده، حتى ينساها . . . فقلتُ له:

- ينسى من يا سيدي؟ فقال

- هو أعلم. فلا تقسو عليه. فقلتُ:

- وكيف أقسو عليه، وهو من دلّني على ماسكوفيتش. فقال لي، وهو يودّعني:

- ماذا فعلت بماسك وفيتش يا ولدي! سيعود إليك بعد أن يقرأ شتراوس. سيعود. فكن جاهزاً له.

فانهمرت الدموع من عيني لتغسل ما علق بقلبي من بقايا علائق الدنيا، وأنا متجهٌ إلى الحق تعالى بمجامع الروح...

تمت،

مراجعات

- القرآن الكريم
- رسائل الجنيد - لأبي القاسم الجُنيد
- النصوص الكاملة للنِفّري - للأستاذ الدكتور جمال المرزوقي
- المواقف والمخاطبات للنفري - تحقيق آرثر يوحنا آربري
- بردة الإمام البوصيري
- فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان - للشيخ سلامة القضاعي العازمي
- الحِكم الطائية - لابن عطاء الله السكندري
- الرسائل القشيرية - للإمام القشيري
- رؤيتي للقرن العشرين - للدكتور مراد وهبة
- أبو بكر الشبلي - للدكتور عبد الحليم محمود
- تاج الصوفية " البسطامي " - للدكتور عبد الحليم محمود
- مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد بن المعتصم البغدادي
- فيزياء المستحيل - ميشيو كاكو
- ديواني الفصحى (مفردة أولى تليق بفضاءاتي) الصادر عام ٢٠٠٥ م

الكاتب في سطور

- **الاسم:** م / حسن حلمي محمد عبد الغني
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر
- رئيس نادي أدب طوخ، وعضو نادي الأدب المركزي بالقليوبية

صدر له:

١- تكوينات من مملكة الليل (ديوان شعر فصحى) عام ٢٠٠١ (طبعة خاصة)

٢- ثلاث لوحات للموت (مجموعة قصصية) عام ٢٠٠٣
(الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ إقليم القاهرة الكبرى)

٣- مفردة أولى تليق بفضاءاتي (ديوان شعر فصحى) عام ٢٠٠٥ (طبعة خاصة)

٤- ماذا لو لم يتوقف القطار (مجموعة قصصية) عام ٢٠١٤
(الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ القاهرة الكبرى)

٥- إنتروبيا- الزمن المنفلت. رواية عام ٢٠١٦ ـ دار الفيروز للطباعة والنشر

٦- الفرعـون الأخـير (نخت حر حـب) روايـة تاريخية عام ٢٠١٨ــ الهيئة المصرية العامة للثقافة

له تحت الطبع:

١ـ مُوتة ترد الروح (ديوان شعر بالعامية المصرية)

٢ـ ثمة طريق مختصر للانفلات (ديوان شعر فصحى)

٣ ـ استقالة عقل (قراءة في عقل المصريين)

٤ ـ عبور خاطئ لكون مواز (مجموعة قصصية من أدب الخيال العلمي)

٥ ـ قراءات نقدية في الأدب العربي المعاصر.

٦ ـ الأنساق المغلقة (كتاب حواري مع سلفي)

٧ ـ قصة للأطفال (العصفور والبلبل)

منشورات الفنار

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com